القلوب انما يكون بعد هذا كله بالمزيد مما يجلب عليهم أسباب الراحة والهناء والرفاهية مما هو في مصلحة السلطان نفسه لانه يزيد الدولة قوة وثراءً والسلطان عظمة ومجداً حقيقياً واذا كان السلطان كما جاء في الاثر الشريف ظل الله في الارض فاحر به أن يكون فيئاً وارفاً وظلاً ظليلاً

الباب السابع

﴿ أدب النفس ﴾

نفس الانسان المخاطبة ـ النفس والقلب والروح ـ الشرور ومداخلها جنود النفس واعوانها ـ فرق ما بين ادراكات الانسان والحيوان ـ استصلاح الارادة ـ أهمية تربية الوجدان ـ تقسيم أدب النفس

قال الله تعالى (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) وقال تعالى (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية) فدل تعالى بهذا على ان تلك النفس الانسانية الكريمة هي التي عليها المعول في الخطاب وسائر التكاليف وانها القطب الذي تدور عليه عموم أفعال الانسان أي اعمال الجوارح الخادمة ، وكل خطاب القرآن الموجه الى القلب ونحوه « أنها لا تعمى الابصار ولكن تعمى

القلوب التي في الصدور » « لمن كان له قلب او القى السمع وهو شهيد » انما يراد به النفس الانسانية الجامعة لمبادئ الخير كله والتي عنها تصدر جميع أفعال المرء الارادية وما يبطنه في سره ووجدانه (تلك المضغة في القلب أو اللب التي اذا صلحت صلح سائر البدن) في كل أعماله ولهذا افرد ادب النفس وتربية الوجدان وتهذيب الاخلاق بالعناية التامة عند المتقدمين والمتأخرين وفي الاديان السماوية حتى تستصلح آداب الجوارح في كل شؤون البشر الاجتماعية وفي آدابنا معاشر اهل الاسلام مما قد أتيت على كثير من أمورها المهمة بالايجاز في الابواب السابقة من هذا الكتاب كما رأيت

والنفس والروح والقلب والعقل كلها كما قال الامام الغزالي في الاحياء وغيره قد ترد مترادفة لمسمى واحد هو (حقيقة الانسان) المدرك العالم المخاطب والمطالب، وعلاقة هذه اللطيفة من النفس الانسانية واتصالها بالبدن وقيامها بشؤونها من الادراك والحس من أدق ماحارت فيه عقول الاقدمين وطارت له احلام المتأخرين فمن منقب عن عملها بالدماغ ومن قائل انها بالقلب ومن حالك انها جارية في عموم البدن مجرى الدم في

العروق والحقيقة التي لا مرية فيها أنها « الانسان » ذلك الكون الاصغر الكادح الى ربه كدحاً فملاقيه إما بنفس زكية وإما باعمال مردية ، ولقد شرح الامام بن مسكويه من حال النفس وماهيتها وادراكها وحسها وحركتها في كتابه « الفوز الاصغر » ما فيه متسع لاهل البحث والتنقيب عن حقيقة ذاتنا الانسانية .

ونفس الانسان هي التي تحفظ عليه صور المعلومات وهي التي ترد به سائر الموارد في الافعال الاختيارية وما يبطن من كمال انساني وقوي نفسانية اقتضتها الفطرة الحكيمة التي فطر الله الناس عليها لحفظ بقاء النوع فجاءته الاهواء والنزعات الشيطانية من جانبها فكانت في أحوال كثيرة شروراً وأضحت رذائل للنفس شائنة ولقد شرح الامام ابن قيم الجوزية في كتابه « الجواب الكافي » تسرب الشيطان والاهواء الى النفوس ومداخلها اليها باسلوب غاية في اللطف تفسيراً لقول الله تعالى في القرآن المجيد « رب بما أغويتني لاقعدن لهم صراطك المستقيم ولآتينهم عن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين » فالأهواء والنزعات الشيطانية تأتي الانسان من

صوب كل عمل يأتيه أو قول ينطق به أو نظر يرمي اليه والشرور أو الذنوب المستلزمة للعقوبات الشرعية والقدرية كثيرة ، أما الشرعية التي اذا أقيمت رفعت القدرية او خففتها فهي كثيرة تعلم من أنواع القصاصات والتعازير الشرعية في حد مثل الزنا وشرب الخمر والسرقة والقتل ونحو ذلك بحسب الشرع أو القانون المبني على صحيح مفهومه من قصد الزجر والردع والتخويف لتستقيم لافراد الهيئة الامور بما يوافق روح الشرع من جهة وذوق العصر من جهة أخرى .

أما العقوبات القدرية أو المعنوية فنوعان نوع على القلوب والنفوس (وقد ذكر الله أمرها في غير ما موضع من القرآن من الطمس والاعماء والترك في الضلالة غضباً وسخطاً الخ) ونوع على الابدان والاوصاف والاموال (وآثار هذه ظاهرة في فقدان أرباب الشرور والفساد للصحة صحة الابدان وللشرف شرف السمعة وللأموال اسرافاً وبداراً) فالعقوبة القدرية تكون على هذا أشد على الانسان لان آثارها الظاهرة في الدنيا شائنة ويترصد صاحبها مع ذلك في الآخرة القصاص الاخروى الشديد ولا سيما تلك الذنوب التي تجم

عن معاملة الناس بالخيانة والغش والسعاية والنميمة والغيبة واغتيال الحقوق لان الذنوب مهما خفيت وصغرت لا تخلو من عقوبة البتة ولكن لجهل العبد لا ينظر بل لا يشعر بما هو واقع فيه من عقوبة للغفلة الراكبة والغواية الشيطانية المستحكمة التي تجعله بمنزلة المخدر والسكران ولكن للسكرة فكرة وحسرة واي حسرة ، فيخلق بالعاقل ان يستحضر العقوبات التي رتبها الله سبحانه وتعالى على الذنوب ويجوز وصولها اليه وهذا انجع واسطة لهجران النفس الرذائل واتقائها المساوى والشرور ولمثل هذا فليعمل العاملون

فالنفس هى العاملة واعضاء البدن مسخرة لتلك النفس التي يعبر عنها « بأنا » فهي جنودها الظاهرة وأعوانها المطيعة من الحواس الظاهرة كالبصر والسمع والشم والذوق واللمس ثم الحواس الباطنة من الحب والبغض والادراك وهذه وتلك كلها جنود للنفس واعوان لها بواسطة أعضاء البدن من اليد والرجل والعين والاذن والانف والفم والدماغ والاعضاء وهي إنما تعمل للنفس تحت إمرة النفس فتجلب لها على مقتضى ذلك إما الخير اذا اعتمدت النفس على حكم العقل الرشيد و إما

الشر اذا كان الدافع هو الهوى لفساد حال النفس وهى كلها انما تسعى بها هذه النفس وتحفزها لامرها في تحصيل اسباب المعاش والملاذ الدنيوية في هذا العالم الارضي فبدافع الشهوة المودعة في النفس تسعى الاعضاء في تحصيل الاقوات والارزاق وسائر أمتعة هذه الحياة الحسية والمعنوية وبدافع «الغضب» المودع الى جنب الشهوة في هذه النفس يحصل الذود والدفاع عنها والحفظ لها وبالادراك والعقل المسيطر على كل قوى النفس والمهيمن عليها يقع التمييز والتفرقة أى العلم بالنافع والعلم بالضار

قال الامام أبو حامد الغزالي في الاحياء ما محصله ولقد يعبر عن هذه القوى أو الجنود الباطنة للنفس من ذلك الباعث والمستحث في الشهوة طلباً لجلب النافع ودفع الضار «بالارادة» للاول و «بالقدرة» للثاني لانه المحرك للجنود النفسانية المبثوثة في الاعضاء ولا سيما العضلات منها والاوتار أما القوة الثالثة قوة الادراك فهي المدركة العارفة بالاشياء بواسطة وسائله وآلاته من الحواس الخمس الظاهرة البصر والسمع والشم والذوق واللمس وهى مبثوثة في أعضاء معينة مرتبطة بالاعضاء الرئسة التي تسكن قوى الادراك الباطنة من تجاويف الدماغ

وتلافيف جوهره المكنون من المخ الانساني والتي هي مصدر حركات البدن كله وسبب ادراكاته العظيمة و « مستودع » معلوماته الغزيرة ومستصدر ارادته وقدرته وتنفيذها بواسطة سائر أعضاء بدنه وهي مكان « نقد » افعاله وميزان اعماله بواسطة ذلك الوجدان الانساني الشريف وضميره المنيف أو بعبارة أخرى عقله الرشيد الذي يميز بين الخبيث والطيب والغث والسمين والخطأ والصواب والخير والشر فاذا وُفِّقَ الانسان الى اكساب هذا الوجدان وذلك العقل مبادئ الاشياء على حقيقتها واستفادها على صحتها وما يتحرى فيها لبلوغ السعادة الحقيقية وصرف لحظاته وخطراته وامياله ومحباته الى الخير المحض استصلحت ولا ريب كل احواله واعماله واستقام عوده فصلحت من وراء هذا احوال المجموع فقلت المعاصي والشرور وتجنب مستذل الذنوب والعيوب ولقد افاض الغزالي وابن قيم الجوزية في كتابيهما السالف ذكرهما في هذا المعنى بما لا مزيد عليه ، والخلاصة ان الانسان قادر بما وُهِبَ من قبل الخالق تعالى من موهبة العقل والادراك والاذواق الدقيقة العالية على اصلاح أحوال نفسه الموضع فيها

كل اسباب الخير وكثير من دواعي الشر

وانه لئن شارك الانسان كثيرٌ من الحيوانات العالية في الادراك كما يتبين للناقد الحكيم في سلائق الحيوان وطبائعه فلقد يرى القرد الصغير الثعبان مثلاً فيرجف منه ويفزع ، وترى الشاة الصغيرة الذئب فتضطرب وتهرب فهذا الادراك أو الشعور الغريزي وان شارك في كثير منه الحيوان الانسان الا ان مما يختص به الانسان وهو المشرف خلقاً وخلقاً إنما هو الاحساس الباطني المبني على الامور العقلية الخصيصة التي تدرج في ارتقائها العقل بارتقاء الانسان بكيفية مخصوصة وتقدم فيها بما وهبه الله من سمو المنزلة والقوة العظيمة التي أشرنا الى مستودعها العظيم من نفس الانسان وتركيب عقله فان هذه أمور وراء المحسوسات وما في حكمها من السلائق الحيوانية ولا يشارك فيها الحيوان الاعجم الانسان مهما رق بل العلوم الكلية الضرورية من خواص العقل البشري اذ يحكم هذا العقل الكريم مثلاً انه لا يتصور ان يكون الشخص في مكانين في حالة واحدة وهذا حكم منه على كل شخص ومعلوم انه لم يدرك بالحس الا بعض الاشخاص فحكمه على سائر الاشخاص

إنما جاءه بطريق الحل والقياس الصحيح وهو زائد على ما أدركه بالحس واذا فهمت هذا في العلم الظاهري الضروري للعقل البشري فهو في سائر النظريات المدركة للانسان أظهر وأجلى .

أما الارادة وما ينبغي أن تستصلح له من وراء العلم بالمبادئ على حقيقتها فانه اذا أدرك المرء بالعقل عاقبة الامور وطريقة الصلاح فيها انبعث عن ذاته شوق ورغبة وعزيمة بالميل الغريزي الى الخير المودع فيه الى جهة المصلحة والى تعاطي أسبابها وذلك غير ارادة الشهوة العمياء وبعبارة أخرى غير ارادة الحيوان الاعجم بل يكون ذلك على ضد الشهوة أو بالتالي بحسب ما هو الصواب فيها لما يجد من الزواجر النفسانية المستفادة من صحة المعلومات وحسن الاذواق التي صارت له ملكة راسخة بحكم العادة في مجتمعه واستشعر وجدانه بفضلها وثمرتها ولذاتها الصحيحة .

واذا تقرر هذا علمت مقدار أهمية تربية النفس وإشعار الوجدان منذ الصغر مبادئ الاشياء على حقيقتها وحقائق الامور على أفضلها وانكشف لك المعنى السامي المودع في قوله تعالى « ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها » فهذا

بخصوص ما أودع الباري تعالى في النفس البشرية من القوى وركب فيها من الشهوات لحكمة اخلاقية ثم دقيق معنى ما عطف عليه بقوله عز من قائل « قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » فهذا اشعار وتنبيه بضرورة القيام بتربية النفس وتهذيبها حتى لا تخيب ولا يشقى المرء بها في الدنيا والآخرة ولتمام الرحمة بعث تعالى الانبياء والرسل الكرام في الامم مبشرين ومنذرين « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » ولقد تقدم في الحديث الشريف « بعثت لاتمم مكارم الاخلاق »

وتربية النفس تنقسم الى قسمين قسم يتعلق بالجوارح ووظائفها وقسم يختص بما يقوم خاصة في السرائر والضمائر وتظهر مع ذلك آثاره بواسطة الجوارح وفي أعمالها ـ وكل اناء بالذى فيه ينضح ـ وهذا القسم أهم من الاول بل هو الاصل في الباب وانه للغرس الذى يثمر كل الثمار إما فاكهة وأباً وإما حنظلاً وشوك قتاد ، فاذا صلحت تلك المضغة من النفس أو القلب صلحت كل أعمال جوارحنا وان قلت ، واذا فسدت منا القلوب والنفوس فهذا لعمرى ما يفسد معه كل شأن

الانسان وهيا تعلو سما وصفيا ارتقت منزلته فانه ليكون الساقط في مهواة من الضعف والشر تظهر آثاره عليه في الدنيا وانه ليترصده عليه في الآخرة كما توعد الله تعالى المجرمين عذاباً شديداً ولهذا قال عمر بن الخطاب «تأدبوا ثم تعلموا» وهو لا يعني ولا ريب بذلك غير أدب النفس قبل أدب الجوارح :

هذا ولقد تقدم في الفصول السابقة جملة مما يختص بادب الجوارح في الاعتقادات والعبادات والمعاملات الى آخر ما مر بك على مقتضى قواعد ديننا الاسلامي الحنيف وأصول آدابه السامية وما جرى به حكمه الظاهري فيها أما هذا القسم من «أدب النفس» الجليل القدر العظيم الخطر فينقسم الى قسمين قسم يتعلق بشأن الخلق فيما بينهم لتصلح به كل أحوالهم وقسم يجب ان يتحلى به المرء مع الخالق تعالى مصدر جميع الخيرات ومفيض كل النعم .

رب ان الهدى هداك وآيا … تك نور تهدي به من تشاء

﴿ القسم الأول ﴾

﴿ أدب النفس مع الخلق ﴾

قوى النفس الحيوانية والممتازة — العقل الرشيد وسلطانه في الدفع — مصادر ادب النفس والعقل — الاخلاق وتهذيبها — التربية النفسية — شؤم الذنوب والرذائل — آثار الذنوب اللاحقة — امهات الفضائل واطرافها من الرذائل — طائفة من الفضائل — الاخلاص — اداء الامانة — البشر — الترفع — التواضع — الحلم — الرحمة — السخاء — سلامة النية — الشجاعة — الصبر — الصدق — القناعة — كتمان السر — المحبة والود — المنافسة — الوفاء — الوقار — جملة الاخلاق الفاضلة ومحاسنها — استئصال الرذائل — رياضة النفس — هل يمكن تغيير الخلق — مطية النفس .

ترك نفسك يوماً وهواها سعى لها في رداها

لقد صحب الانسان لكمال خلقه الحيواني ثلاث قوى كما تقدم الشهوة والغضب ثم حب الذات أي الاثرة لحفظ النوع وامتاز عن باقي جنس الحيوان وفضل وكرم من بينها بتمام العقل أو عظم الادراك كما سلف ، فهذا العقل الخصيص بنا سلطان حاكم وباقي القوى مسخرة له فمن غلب على عقله شقوة شهواته البهيمية فقد التحق بافق البهائم الموصوفة بالشراهة (اولئك كالانعام) ومن غلب غضبه عقله فقد صار الى مرتبة السباع

الكاسرة والحيوانات المفترسة ومن خبثت نفسه وفسدت سرائره واستعمل عقله واستخدمه في المكر والخداع والغش والرياء (يخادعون الله وهو خادعهم) فقد انطوى طى المردة من الشياطين ، ومن ساد عقله الرشيد كما هو المراد منه كل قواه الاخر فجرى في تسخيرها بالاعتدال والحكمة فاز بكمال الانسانية واتصف بأجمل محامدها وأجل صفاتها الممتازة وصار من ثمّ احرى بأن ينتظم في سلك الملائكة المكرمين والبررة المقربين من الله تعالى «واولئك هم المفلحون» في الدنيا والآخرة .

واذا كان هذا العقل الرشيد هو السلطان الحاكم المدبر لعموم الافعال الانسانية بالحكمة والسداد لهذا كان قابلا ومستعدا تمام الاستعداد لأن يؤتي الحكمة ولان تنطبع فيه على اكمل صورة صور المعلومات ووهب لهذا قوة التميز والتفريق بينها بحك النظر الصحيح لتلك الهداية الصمدانية والنورانية الربانية المودعة فيه وهي التي ترتب المعلومات وتزاوج بينها وتقارن وتبنى الاحكام وتحصل النتائج متسلسلة والافكار متناسبة آخذاً بعضها برقاب بعض أو مختلفة بحكم اختلاف العلل والاسباب ولهذا كره الوقوف على المعلومات الواحدة والاساليب الواحدة

بالتصلب فيها خصوصاً فيما يتعلق بالمعلومات المستفادة بالتقليد الاعمى دون اطلاق العقل وتسريح الفهم لارتياض الحقائق واقتناص الشوارد لان هذا يوجب الجمود بل التفهم لرسوخ الامور التقليدية ونشربها العقول فلا تقدر على الخلاص من ربقة الاسر والضيق وبالتالى لا تتوق ولا تنشط الى الاخذ بما هو من مزايا اللب وفضائل هذا العقل البشري وتطلب العلاء وحسن الاختيار بحسب المقتضيات والظروف العمرانية التي وان حصلت بالتدريج لكنها تظهر فيها الفروق العظيمة بالنسبة الى أحوال الجامدين بالقياس على أحوال غيرهم من الهيئات التي تنشد الرقي ولا تأسر نفوسها الامور التقليدية مما ذمه الله تعالى في حال الامم التي قالت « انا وجدنا آبائنا على امة وانا على آثارهم مقتدون » وهذا باب واسع قد يطول فيه الشرح فلنرجع الى المقصود بالذات

لقد يكسب هذا العقل الرشيد بموجب الادب الاسلامي حقائق المعلومات والمعارف النفسانية لينتفع المرء بها دنيا واخرى في نفسه وجوارحه الاخذ بما جاء في الكتاب والسنة وفهم معانيهما ثم استخدام العقل فيهما بالتدبر والتفهم ومعرفة ما ينطوي

طي هذا من حكم وأسرار وآداب ودقائق وهذا يقتضي دراسة مبادئ العلوم العقلية كما يقتضي الاستعانة بالمعارف الآلية وما الداعي الى عزل العقل البتة اكتفاء بالتقليد الاجاهل ، وما المكتفي بمجرد العقل في مثل تلك الاحوال دون التنور بانوار الكتاب والسنة الا مغرور . وجملة القول أن العلوم العقلية والطبيعية فيما يقصد بها هاهنا لفائدة البشر كالأغذية والعلوم الشرعية كالادوية والشخص المريض قد ينقص بالغذاء اذا فاته الدواء فلهذا كانت أمراض النفوس لا سبيل الى معالجتها على أحسن حال وأفضلها الا بالادوية المستفادة من طب الشريعة وآدابها المستنبطة منها بالبصائر النيرة في امور الاعتقادات والعبادات والاعمال لتنتظم أحوال النفوس وتصلح وتتصف بالخير قلباً وقالباً وتحيط مع ذلك بالاشياء على حقيقتها الامر الذي يعود نفعه على المرء في نفسه وهيئته وسائر عمله فيها وارتباطه بها .

هذا ما يختص باكساب العقل لدينا المعلومات الشرعية والعقلية اللازمة له حساً ومعنى والتي هي كالأساس للتربية وأمر ما يسمونه تهذيب الاخلاق وتطهير الاعراق التي افترق فيها لاهميتها الى فرق ومذاهب ولا غرو وهي أول متحرى الباب

باب ادب النفس عند سائر الخلق. ولقد عرفوا الخلق بانه عبارة عن الهيئة الراسخة في نفس الانسان التي تصدر كل الافعال عنها بسهولة من غير ما حاجة الى كبير فكر أو روّية لسابق الاعتياد عليها بالتكرر للنفس فيها وإلفها لها فان كانت تلك الهيئة في النفس بحيث تصدر عنها الافعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا بحسب العرف سميت « الخلق الحسن » واذا كانت بعكس ذلك دعيت « الخلق السيئ » وانما اشترط الرسوخ لتلك الصفة أو الهيئة ليحكم برسوخ الملكة والعادة واسم الخلق ولا عبرة بالاعراض الطارئة سلبا وايجابا في الافعال إذ العبرة بالاتصاف الحقيقي الملازم للنفس ، فالخلق اذن هو عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة وجمالها وجلالها في كمالها الاتصافي فيما ترشح من انائنا على سائر القوى وافعال الجوارح بسهولة . واذا كان الجمال الظاهري للصورة الادمية يقتضي تناسب أعضائها واعتدالها فللجمال الباطني مثل هذه الحال أيضا من حيث لزوم التناسب بين قواه حتى يتم للمرء حسن الخلق ، وهاته القوى اذا اعتدلت وتناسبت حصل ولا ريب حسن الخلق أو اعتدال المزاج أو ملكة الاذواق السليمة ولحسن حظ النفوس انها قد جبلت

قابلة لهذا الحال من قبول التهذيب متى ما مهدت لها وسائله وتدرجت عليه شرعياً وعقلياً على الوجه الآنف

وهذا ليس بالذي ينال على أحسنه الا بالتربية والترويض على محاسن الاخلاق وكريم الشيم لكي تخدم سائر القوى ذلك السلطان من قوة الفكر والعقل الرشيد فتحسن من ثم الارادات وتمتاز الرغائب ، وأفضل ما يكون من هذه التربية ما تقع منها في الصغر وزمن الحداثة ولدانة العود وهو الامر الكريم الذي أجمع على جودته وضرورته السلف والخلف لان نفس الصبي جوهرة نفيسة وجبلة خالية من كل نقش واثر لصورة ما فهو لهذا أسرع قبولا واسهل ميلاً لما يمال اليه عوده ، فان عود الخير بالافعال والقدوات الحسنة العملية في العائلة والمجتمع وعلم نظريا وبين له حكمه وحكمته سعد في الدنيا والآخرة وشاركه أبواه ومعلموه في الاجر عند الله ، وان اعتاد الرذائل والشرور وأهمل شأن تقويم نفسه شقي ووقع في الآثام والذنوب وكان الوزر في رقبة أبويه كما في رقبته بل في رقبة الهيئة الاجتماعية التي رضيت لاحد اعضائها به

وشؤم الذنوب ومصائب الرذائل النفسانية لها في النفوس

آثار رديئة من حيث عرقلة الاحوال ومغالب سيئة في سائر الشؤون والافعال فضلا عما يترصد اصحابها من القصاصات من الشرع القائم والوعيد بالعقوبات الاخروية مما يظهر أثره في الحياة الدنيا أيضاً وما استدفعت النقمة بمثل الطاعة وتحسين الاعمال والاخلاق مما هو مجلبة كل خير كما ان أضداد ذلك من أكبر الاسباب الجالبة لكل شر ، وقد رتب سبحانه وتعالى حصول الخيرات في الدنيا والآخرة وحصول السرور والسعادة فيهما في كتابه العزيز على الاعمال ترتيب الجزاء على الشرط والمعلول على العلة ، فالامر صريح والشأن ظاهر في ترتيب الجزاء بالخير والجزاء بالشر لصلاح أحوال البشر في دنياهم ولتمام سعادتهم في أخراهم (الآيات القرآنية في ذلك كثيرة) ومن الجهل الفاضح والشر الواصل ارتكاب الذنوب ومغالطة النفس في التلوث بالرذائل اتكالاً على عفو الله ومغفرته والتسويف في أمر اصلاح حال النفس العائد نفعه على ذات المرء فالتوبة النصوح وقوة الارادة بالرجوع عما عنه نهى وزجر أمر صريح الوجوب بنص الكتاب والسنة السمحة

ولقد عدد ابن قيم الجوزية الآثار القبيحة للذنوب والرذائل

اللاحقة آثار اضرارها بالقلوب والنفوس والابدان وكل الشؤون الاجتماعية في الدنيا فضلا عما هو مرتب عليها من القصاصات في الآخرة فمنها حرمان العلم وفساد العقول والغفلة في الشؤون، ومنها ظهور الفساد في الارض وقلة البركة في الارزاق والاحوال، ومنها حلول النقم والهوان والذلة والصغار والاحتقار من الناس، ومنها التخاذل القومي وتفكك الروابط بين أفراد الامة هذا فضلا عن العقوبات المعنوية في النفس والوجدان من لحوق الغم والكدر وحلول الامراض البدنية والنفسانية ثم قطع الامداد والطرد من حضرة الله ثم العقوبات الاخروية من العذاب ودخول النار الى آخر ما فصل وبين وشرح من ذلك ابن قيم الجوزية والامام الغزالي وغيرهما

أما محاسن الاخلاق او الفضائل النفسانية فيجب أن تتشد على وجه عام لعموم أبناء الامة بموجب المبدأ الاسلامي وبالحديث الشريف « بعثت لأتمم مكارم الاخلاق » والآثار في الباب باب وجوب التحلي بالفضائل ومكارم الاخلاق في كل الشؤون وفي جميع الاحوال مشحون بها الكتاب والسنة ناهيك عما هي لازمة له في شؤون البشر بموجب كل المبادئ الانسانية

والاحوال الاجتماعية ليسعد البشر ويغبطوا فيما هم بصدده من الاسباب والاعمال مما يجعلهم رحماء بينهم متضامنين متكاتفين في الشعور والاحساسات وكل العواطف الخيرية الفردية والقومية حتى تعتدل لهم أمور الحياة وتصفو لهم الموارد من الاكدار والخبائث قياماً بالواجب الانساني لنوال الكمال الانساني وتحرياً للعقل والفضل الانساني لان حد العقل كما قال ابن حزم استعمال الطاعات والفضائل وتجنب المعاصي والرذائل ولقد نص الله تعالى في غير ما موضع من كتابه على أن من عصاه لا يعقل ومن شر العصيان الاتصاف بالرذائل الاجتماعية بين البشر خصوصاً فيما يتعدى ضرره الى الغير والدين المعاملة

وأمهات الاخلاق التي ذكرها اخلاقيو الاسلام[1] اربع « الحكمة » و « الشجاعة » و «العفة» و «العدالة» قال الشيرازي وهي أوساط طرفاها البعيد ان رذيلة « فالجربزة والبله » طرفا الحكمة و « الفجور والجبن » طرفا الشجاعة و « الشره والجمود »

---

(١) يراجع أيضاً على هذا الفصل كتاب الاخلاق للشيخ محي الدين بن العربي وتهذيب الاخلاق للحكيم ابى زكريا يحي بن عدى وتهذيب الاخلاق لابن مسكويه

طرفا العفة و « الجور والخيانة » طرفا العدالة . ولكل من هذه الفضائل والرذائل فروع وحدود وتعريفات وطرق استفادة واكتساب وطرق علاج في الاضداد وطرق لدوام حفظ صحة النفس كما تحفظ بالوسائل الصحية الحسية الابدان وتوقى من الوقوع في الامراض والاوصاب . ولقد استوفى ذلك كله في كتب الاخلاق الاسلامية وقال الامام الراغب الاصفهاني في كتابه الذريعة الى مكارم الشريعة حكمة نفيسة في اكتساب الفضائل قال « حق الانسان في كل فضيلة أن يكتسبها خلقاً ويجعل نفسه ذات هيئة مستعدة لذلك سواء أمكنه ان يبرز ذلك فعلاً أو لم يمكنه وذلك بان يكون على هيئة الاسخياء والشجعان والحكماء والعدول وإن لم يكن ذا مال يبذله ولا عرض له مقام تظهر فيه نجدته ولا معاملة بينه وبين غيره تبرز فيها عدالته فقد قيل لبعض الحكماء هل من موجود يعم الورى فقال نعم ان تحسن خلقك وتنوي لكل أحد خيرا وقال عليه الصلاة والسلام « انكم لن تسعوا الناس باموالكم فسعوهم باخلاقكم »

قلت ان للفضائل فروعا ولوازم ولقد عدوا منها ما ينيف

على المشرين خلقاً حسناً لا يمكن للانسان ان ينكر فضلها في كل أين وآن أو أن يقدح في نفعها وغرتها أو يدعي عدم لزومها والغناء عنها في الحياة الادبية والاجتماعية وان تفاوتت فيها الهمم وتباينت العزائم بعد ان أجمع الاولون والآخرون على ضرورتها ووجوب تحريها من جهة العقل ذلك الذي هو حد الفضائل ومن جهة الشرع ذلك الذي يهدي الى المحاسن وهاك هي مع اضدادها مرتبة على حروف المعجم ليسهل تناولها والاستدلال عليها .

الاخلاص — هو عماد كل الاعمال واكرم أس في جميع الاحوال فمن أخلص في عمله وفي حاله كله بين أبناء هيئته كان الناجح في كل شؤونه الظافر بمرغوبه الظاهر بين اخوانه باحسن الفضائل وأجمل الشيم الاجتماعية التي يجب ان يتحلى بها الانسان لتصفو له موارد الحياة والمودات الانسانية وفي الحديث الشريف « ما من عبد يخلص لله العمل أربعين يوماً إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه » وسيأتي مزيد بيان لهذه الخلة الكريمة في قسم أدب النفس مع الخالق

أداء الامانه — قال الله تعالى يصف الممدوحين بهذه

الفضيلة عنده « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » وأداء الامانه قرين الوفاء الآتي ذكره وإنما يزيد عليه بانه التعفف عما يتصرف فيه الانسان من مال الغير باحد التصرفات الممكنة من مثل الوكالة والوصاية والقيامة على القصر والمعتوهين والسفهاء وتولى الاوقاف والوظائف العمومية ونحو ذلك فكل هذا يدخل التعفف وأداء الامانه فيه فى باب أدب النفس الجميل دنيوياً ودينياً وما الخيانة في مثل تلكم الاحوال ونحوها الا الشر المردي في النهاية بصاحبه ، المفسد عليه جميع أحواله في المجتمع ، المثلم لشرفه وصيته ، المشهر له باحط الاوصاف . وكفى بالخيانة أثماً مبيناً وعاراً وشناراً قد لا يمحى ولقد جاء في الحديث الشريف « إن أحبيتم أن يحبكم الله ورسوله فأدوا إذا أتمنتم واصدقوا إذا حدثتم واحسنوا جوار من جاوركم »

البشر وطلاقة الوجه — هو ذلك الخلق الكريم الذي يكسب صاحبه محبة الخلق وإلفهم له وعطفهم عليه وهو خلق مستحسن من جميع الناس يكسبهم كل خير بعكس عبوسة الوجه وتقطيبه — ولقد كره في الحديث ان الله يكره العبس في وجه اخوانه — الدال على سوء الخلق وشراسة الطباع

والكبر غالباً ، والبشر وطلاقة الوجه من أجل أنواع البر قال الشاعر :

لعمرك ان البر شيء هين وجه طليق وكلام لين

الترفع والتصون — هما من أجل الخلال البشرية ويجريان في تجنب الهزل والقبيح وذكر الخنا وثقيل المزاح وسخيفه وخفة الاحلام ونزق النفوس والانقباض عن ادنياء الناس في المعاشرة والمخالطة وفي الترفع وعزة النفوس وشمم الافئدة والتحرز من المعيشة الزرية واكتساب المال وطلب الحاجات بالمداهنة والتملق والرياء والخداع فان هذا كله وأمثاله معيب شائن لا يأتيه الا سفلة الناس وأصحاب النفوس الدنيئة وبذل ماء الوجوه وتعفير الخدود ولقد جاء في ذم ذلك آثار جليل وحكم حكيمة واقوال للسلف وامثال غاية في السداد فيجدر بالمرء العاقل والمسلم المتأدب بأدب الاسلام بل بالآداب المصرية ان يصون نفسه ويترفع بخلقه وأن يزن اموره بالحكمة ويجري في شؤونه بالعقل مترفعاً متصوناً وهذا لا ينفي مبدأ التواضع الآتي . لانه بون ما بينهما

التواضع — خلق جميل ممدوح وخلة شريفة لا تزيد

صاحبها الا رفعة في الهيئة وعجبة ومودة بين الناس لان ترك المباهاة بالجاه الحسي والمعنوي أمر محمود من ذوي الجاه خصوصا أما الكبر والخطرسة والاستهانة بالناس والترفع عليهم بحق وبغير ما حق يوجبه على نحو ما سلف في الترفع والتصون المطلوب عن الاحوال المزرية مما يجعل الناس يزدرون المرء ويحتقرونه من أجله فأمر مضر به ضرراً بليغا لان من يبغضه الناس ساءت أحواله فضلا عن ان المرء بالتشبث بالكبر والاعجاب بالنفس يبعده ذلك عن اكتساب الآداب والمحامد الصحيحة ومن لم يستزد منها بقي أبداً في نقصه وانحطاطه دون نوال الكمال وما اخر به غير كبره وصلفه ولقد جاء في مدح التواضع وذم الكبر آثار جليلة وآيات بينات من الكتاب والسنة وآثار السلف واساطين الحكمة بما فيه اجمل الموعظة الحسنة جاء في الحديث الشريف « التواضع لا يزيد العبد الا رفعة فتواضعوا يرفعكم الله تعالى، والعفو لا يزيد العبد إلا عزاً فاعفوا يعزكم الله تعالى ، والصدقة لا تزيد المال إلا كثرة فتصدقوا يرحمكم الله عزّ وجل » وقال تعالى « ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الارض مرحا »

الحلم — قال الشاعر :

بحلم وعلم ساد في قومه الفتى وكونك اياه عليك يسير

فالحلم — والحلم بالتحلم كما في الحديث الشريف من اكرم الخلال وهو اصل من اصول الدين وقد وصف الله تعالى به نفسه وأثنى به على أنبيائه فهو من أجل عزائم الصبر واجل فضائل العقل والاناة والتوءدة المحبوبة وعلو الهمة الآتي ذكرها ، ولقد حدوا الحلم بانه « ترك الانتقام عند شدة الغضب مع القدرة عليه » وهو حال محمود ما لم يؤد الى ثلم الشرف أو فساد الامور ويضاد هذا الخلق من الرذائل «السفه» وكفى بهذه الاسماء والنعوت من السفه والسفاهة والسفيه شيناً ، والسفه سرعة الغضب والطيش من يسير الامور والمبادرة بالانتقام والطيش أو الخرق والسب والشتم وياله من خلق دنيء وسفالة في النفوس النبيلة الجاهلة شائعة في الطبقات النازلة خصوصاً . فاستصحاب الحلم والتحلم والتوءدة والتشبث بذلك كله إنما هو من أفضل الاحوال الجليلة والاخلاق الجميلة التي يجب ان يتحلى ويتخلق بها في الهيئة الاجتماعية . ولقد اشتهر عن كثير من ذوي المقامات الجليلة أنهم ما اكتسبوا المجد

والسؤدد والمدح والثناء إلا من استعمالهم هذه الفضيلة فضيلة الحلم فظفروا بها ونجحوا في أعمالهم وتدبيراتهم كما اشتهر عن معاويه بن أبي سفيان رضي الله عنه وغيره كثير.

الرحمة — وقد وصف الله بها نفسه في كثير من المواضع في القرآن المجيد والذكر الحكيم فيجدر بالانسان ان يتصف بالرحمة ذلك الخلق الكريم والفضيلة الانسانية العظيمة من الشفقة والحنان والعطف على الاخوان ومع سائر أبناء جلدته بل عامة مخلوقات الله تعالى فالشفقة مطلوبة والرحمة واجبة والراحمون مرحومون من الرحمن مشكورون من الناس. والرحمة أوقع في النفوس اذا كانت من الاكابر الى الاصاغر ومن الاقوياء الى الضعفاء وفي الامة بين بعضها والبعض مما هو من أحسن وأجمل مظاهر التضامن والتضافر للتماسك المطلوب فيرحم القوي الضعيف ويوقر الصغير الكبير ويواسي الواجد المعدم. أما القسوة والشراسة والاثرة والتخاذل والتجافي وعدم الرحمة والشفقة فمن الخصال الممقوتة والفعال المضيعة التي لا توجب لصاحبها في الحياة إلاّ ولا ذمة ولا جزاء ولا شكوراً فاذا ما منيت الامة بعدم الرحمة وبليت بالتقاطع والتدابر وغطرسة

النفوس (خلافاً لما جاء في الحديث مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد اذا اشتكى عضو منه تداعي له سائر الاعضاء بالسهر والحمى وفي الحديث الآخر المسلمون كالبنيان يشد بعضه بعضاً) فاذا ما منيت الامة بذلك فلن يكون بين أفرادها غير الكراهة والبغضاء والحسد والسخط وان وجد شيء من الميل والعطف فبطريق المداهنة والرياء نفاقاً وليست تكون في شيء من كسب الاحترام الصحيح والمحبة الحقيقية المبنية على تبادل المحبة بالاخلاص والصدق الآتي من قبل الرحمة الحقيقية والناتج عن الشفقة والحب الخالص المتبادل من أجلها بالاخلاص . فمن خص بهذه الخلة الكريمة من الرحمة والشفقة فقد فاز بأجل شعور للانسانية وحظي من أجل ذلك بين أهله وناسه وعموم أبناء هيئته بأجل الأرب وأفيد الآداب الاجتماعية.

السخاء — هو بذل المال عن قدرة في حقوقه ووجوهه الاجتماعية المفيدة وقد تقدم شيء من ذلك ، وهذا الخلق مستحسن ما لم ينته الى السرف والتبذير فالاعتدال واجب في كل الاحوال كما ان البخل والشح والضن بعد يد الاعانة والرفد

والمساعدة في وجوهها المطلوبة شرعياً واجتماعياً مذموم لانه يحرم الانسان مما لا ينبغي أن يحرم نفسه منه في هيئته في حال ميسرته وغناه ومقدرته على اكتساب المحامد والمفاخر الاجتماعية بواسطة ماله بين هيئته ولله ما أجزل معنى الحديث الشريف « السخي قريب من الله قريب من الناس والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس » ولا ريب انه يقصد بهذا القرب ما أشرنا اليه من الجهة النفيسة المثمرة للمحامد

سلامة النية وحسن الطوية - وهو اعتقاد الخير لكل الناس ومعاملتهم بقلب سليم وهو من الاخلاق المرضية الواجب التحلي بها دينياً أيضاً وتنكب عن الخبث والغيلة والمكر والخديعة تلك الصفات التي هي من شر ما يجني المرء بها على نفسه في سائر المعاملات وان ظهر له أنه الرابح الناجح بتلك الخصال الذميمة بادئ بدء لكن لا يلبث من يتصف بها ان يرى الناس وقد علموا بخبث طويته وقبح سريرته احتقروه وازدروه وتجنبوا معاملته بل ربما كالوا له بما يكيل لهم به فلا يعود غالباً ينجح بينهم او يظفر منهم بطائل الا بمقدار ما ينتفع به منه في

المجتمع فضلا عن الانتقاص الادبي والسمة الرديئة « ولا يحيق المكر السيئ الا بأهله»

الشجاعة — الشجاعة الادبية من خير ما تحلى به النفوس وتنجح به كل الشؤون اذ لخوار العزيمة والجبن الادبي ضررهما البليغ في نفوس الافراد بما لا يمكن حصره ، والشجاعة الحسية من أفضل الصفات لان الثبات عند المكاره والنوازل أمر مطلوب لسلامة الحياة البشرية والذود عن الحياض ولقد قال الشاعر العربي القديم

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يضرس بانياب ويوطأ بمنسم

وليس للمرء أفضل من سلاح الشجاعة ما دامت غير بالغة حد التهور وكذلك الحال في الشجاعة الادبية من حيث قول الحق والصواب غير هياب ولا وجل إنما يكون بمراعاة آداب لها وشروط تبعاً للنظام المرعي ولقد كان للمسلمين هذه الملكة ملكة الشجاعة الادبية على أشدها في الاعصر الاول ولكنها تلاشت من نفوسهم شيئاً فشيئاً تبعاً للتقلبات والتغيرات الشديدة التي أبعدت النفوس عن مبدأ الحرية والمساواة الاسلامية حتى أضحت في أخريات الايام كلا شيء الامر الحري

بان يرجع اليه طلباً لمظاهر الحياة الاجتماعية الصحيحة وحرية الافكار المفيدة وفي الحث على هذه الشجاعة الادبية جاء في الحديث « لاينبغي لامرئ شهد مقاماً حق الا تكلم به فانه لن يؤخر اجله ولن يحرمه رزقه »

الصبر — الصبر عند الشدائد وهو خلق مركب من الشجاعة والوقار ومستحسن جداً في كل الامور أما الجزع والقلق والاكثار من الاضطراب بحيث يصير المرء كما قال الشاعر

كريشة في مهب الريح طائرة لاتستقر على حال من القلق

فليس يفيد صاحبه ولا هو بالمغني عن الصبر فتيلا في التدبير واستنباط الحيلة بالثبات والاجتهاد بالحكمة لدفع ضرر الشدائد وتذليل المصاعب واحتمال المكاره والتماس المخارج وهذا لعمري ما يسميه اخلاقيو العصر بالثبات والثبات والصبر مترادفان هنا على ان للصبر فضلا في كل الامور وهو مطلوب دينياً في كل الاحوال وعقباه محمودة في احتمال تصاريف الاقدار الجارية على الانسان التي يعد الجزع فيها عصياناً وسخطاً على مقدور الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « في الصبر على ما تكره خير كثير » وقال « الصبر والاحتساب خير من عتق الرقاب ويدخل

الله صاحبهن الجنة بغير حساب » وقال بعض الحكماء « الصبر باب العز والجزع باب الذل » وقال الشاعر الحكيم

الصبر أفضل ما اعتصمت به ولنعم حشو جوانح الصدر

والصبر صبران صبر على الاقدار وصبر على الاعمال وسيأتي زيادة شرح على الاول في قسم أدب النفس مع الخالق تعالى .

الصدق ـ والصدق منجاة من العطب ـ وهو ذلك الخلق الكريم والخلة الجميلة من الاخبار بالامور على حقيقتها والجري في كل الشؤون بموجب أدبها والمؤمن كما في معنى الحديث الشريف اذا قال صدق واذا وعد أوفى ـ والصدق مستحسن من كل الناس وخليق بمن يتصف به ويشتهر ان يكتسب احترامهم وثقتهم به واجلالهم لمقامه مقام لسان الصدق أما نقيض هذه الخلة من الكذب فمن اقبح الرذائل واخس وأردأ الخصال المفسدة للاحوال المضيعة للحقوق في مثل شهادة الزور والبهتان والحلف الكاذب فانها كلها حرام ومن أشأم الخصال التي يتخلق بها امرؤ سفلت نفسه وانحط خلقه ، ويدخل في باب هذه الرذيلة بل هو من شر الكذب « النميمة » و « النميمة » « والسعاية والوشاية » ويالله ما أقبحها وأسوأها من صفات

دنيئة وخصال رديئة تعود بالضرر على المتصف بها اكثر مما قد تضر بمن عداه وكتب التاريخ والمحاضرات الاسلامية مملوءة بالمثالب البالغات مشحونة بالعبر القارعات ناهيك انه قد تضافرت النصوص الدينية الصريحة والبراهين العقلية الرجيحة على سوء عقبة من يتصف بالكذب وقبح حال من أكل لحم أخيه ميتاً او شهد شهادة الزور الى آخر ما في الباب من تلكم الارذال الذميمة والخصال السخيفة التي لا تقوم عليها مصالح البشر الحقيقية البتة ولا تضر الغير بمقدار ما تضر أصحابها في الهيئة فضلاً عما يترصد المتصف بها من العقاب الشديد يوم ينفع الصادقين صدقهم

العدالة ـ هي التقسط اللازم للاستواء في جميع الفعال وكل الشؤون واستعمال الامور في مواضعها وبأوقاتها وفي وجوهها وحقوقها وقد مضى شيء كثير مما يتعلق بها في أدب المعاملات وغيره وأدب الحكومة ، أما الظلم والجور فذلك الذي يضاد العدل ويخرب البيوت والممالك ويفسد كل الاعمال فهو خروج المرء عن العدالة المطلوبة في جميع الامور كأخذ الاموال من غير وجهها الحلال والمطالبة بما ليس له فيه حق

ووضع الاشياء في غير مواضعها ولا أوقاتها ولا على القدر الذي يجب والوجه الذي يجب كالسرف والتبذير وتطفيف الكيل وتخسيره ونحو ذلك

العفة — وما أحلى اسمها وأجل خلقها واعم نفعها في ضبط النفس دون الاسترسال في الشهوات وزمها بعيران العقل والحكمة وقصرها على الامور الحلال وهو الامر المطلوب انسانياً لصلاح حال البشر وجمياتهم صحياً لتقدمهم وسلامة أبدانهم ونفوسهم وعدم اضاعة أموالهم ولتحصل بالوزان الشرعي الانساني أمور التناسل والتكاثر على مقتضى مبادئها الانسانية الحقة بعكس حال نقيض هذه الخلة من الفجور والانهماك في الشهوات والشرور وارتكاب الموبقات وشرب الخمور والفحش تلك المفاسد والشرور الهادمة للبنية الانسانية المقوضة لدعائم الهيئات المحيطة بشرف النفس الآدمية المردية بقواها العاقلة والادبية ، والآثار والاخبار في مدح العفة وما تحتها من الخلال الحميدة وذم الفجور والفسوق اكثر من ان تحصى وما اقبح من ان يصير المرء الحر عبداً بارادته وأسيراً لشهواته التي تجره الى اختلال

أمره والانتهاء بتلاشي شأنه « وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون »

علو الهمة ـ خلة من أجل الخلال الانسانية الخصيصة بالانسان والحرية بكماله العقلي وشرف ارادته التي يجب ان تحرر من اسر الاهواء والسفاسف ويتحرى بها اعالي الامور في جميع الشؤون دون حقيرها ودنيئها الدال على خساسة الشأن وغباوة النفس وجهلها وصغر الهمم وانحطاط العزائم الامر الذمي تسفل معه كل الاعمال والافعال ، وعلو الهمة وكبرها حال بين « التفنج وصغر الهمة » فالتفنج تطلع الانسان لما لا يستحقه ولا هو كفؤ له وهو البذخ وصغر الهمة ترك ما يستحقه وهو الدناءة وكلاهما مذموم على انه قد قيل (المرء حيث يجعل نفسه إن رفعها ارتفعت وان قصر بها اتضعت) فيجدر بكل امرئ ان يجتهد ولا يصغر همته او يحط بنفسه قال الامام عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه (لا تصغر من همتك فاني لم أر اقعد بالرجل من سقوط همته) وهذا انما ينال بالجد والاجتهاد والترفع والتصون وتحرى أحسن الاحوال من غير ما صلف ولا تفنج في الشؤون علماً وعملاً ولله ما اجمل ما قال الشاعر

فقل لمرجي معالي الامور بغير اجتهاد رجوت المحالا

أما صغر الهمة والدعة في مجاري الاحوال كلها فموجب للانحطاط والخسار ولذلك قيل ما لزم احد الدعة الا ذل ، وحب الهوينا يكسب الذل وحب الكفاية مفتاح العجز » وقال الشاعر:

اذا ما الفتى لم يبغ الا لباسه ومطعمه فالخير عنه بعيد

غير أنه لما كان التوسط في كل الامور من أهم شروط الحكمة والتوسط في كل الاحوال من اكمل الادب الانساني فلهذا يجب على كل عاقل ان يتوسط في أمره ولا ينزل نفسه الا منزلتها ويتدرج في شأنه بالحق والاعتدال تدرجا فلا تبلغ به محبة التفاني في التعالي الى درجة « التفنج » المذموم ولا يحط بنفسه وهمته وعزيمته الى درجة الحقارة والانحلاد الى أرض المهانة وما الحكمة الا بين الاطراف وخير الامور أوساطها كما جاء في الحديث الشريف .

القناعة النفسية من أجمل الخلال وأحسنها وليس معناها الانحلاد الى أرض الدعة والكسل والخمول والتنكب عن السعي والعمل بالجد في تحصيل الارزاق والمكاسب بهمة ونشاط وعزيمة صادقة ضمن دائرة الشرع فيما لم يحرم من

الاعمال والمساعي كما تقدم القول فيه في باب أدب العمل بل المراد بها تلك الصفة التي تلازم النفوس الكريمة والهمم العالية المتأدبة بأدب الاسلام فترضى في نفسها بالحاصل لديها في الوقت والحال ولا تظهر التألم والتمني والشره بل تتناول ما تسعى اليه بالحق وما تحصله منه بالقدر المحبوب الممدوح فهذه القناعة هي ولا ريب التي عناها رسول الله صلى الله عليه وسلم « القناعة كنز لا يفنى » وهي بهذا الحال من أفيد ما يتحلى به الانسان ومن خير ما ترتاح اليه النفس ناهيك وان الطمع والشره من أضر ما يضر بالمرء لانه يفتح عليه باب الشر ومداخله الكثيرة والوقوع في الحرام في باب الكسب لفرط الطمع والجشع ولله ما أحسن القصد والاعتدال وبعبارة اخرى ما أجل القناعة ذلك الكنز الذي لا يفنى .

كتمان السر — خلق ممدوح وهو يدخل في باب أداء الامانة والوفاء ، فاذا ما ائتمنك انسان على سر يلقيه اليك أو حدثك حديثاً يجب اخفاؤه فلا تكن سفلاً سفيها بإذاعته خائناً بافشائه ناكثاً عهد الامانة فيه ولقد قيل في مدح من يكتم أسرار أصحابه واخوانه

ويكاتم الاسرار حتى انه ليصونها عن ان تمر بباله

وشر الناس اولئك الذين لا خلاق لهم من الثرثارين الذين يستنزلون الناس اسرارهم حتى إذا ما استفرغوا ما في بطونهم من شكاة وبرحاء وامور هامة اذاعوها عنهم للتشنيع بهم والحط من أقدارهم أو لمقاصد خبيثة يطوونها وهؤلاء هم شر بني آدم وهذا الخلق من أردأ الاخلاق وأحطها وأشأم الخصال وأخسها فالمرء الحلو الشمائل الحسن الآداب يجدر به ان يكتم سر أخيه فيما يحط به أو يضر بشأنه ولا يفشي عليه ما يكره من شكوى أو بلوى يبثها اياه ليفرج همه وكربه ولله ما ألطف وأرق هذه الحكمة التي قالها امرؤ عاقل لصديق له حين قال له « أريد أن أفشي لك سراً تحفظه عليّ » فأجابه الصديق الحكيم على الفور « لا أريد ان اريك قلبي بجوانك واجعل صدري خزانة شكواك فيقلقني ما أقلقك ويؤرقني ما أرقك فتبيت بافشائه مستريحا وبيت قلبي بحره جريحا .

وافشاء السر حرام لانه أمانة قال الحسن رضي الله تعالى عنه « من الخيانة ان تحدث بسر أخيك »

المحبة والمودة — وهي احدى أسباب نظام العالم العلوي

والسفلي ولو وجدت المحبة بين الناس كلهم على حقيقتها لاستغنى عن العدالة ولذلك قيل العدالة خليفة المحبة ، على ان هذه المحبة والمودة مما يجب بمقتضى أدب الاسلام أن يتخلق بها الناس بين بعضهم والبعض من الاهل والاقارب وأبناء الهيئة وعموم بني الجنس ولقد مضى عنها شيء في أدب المعاشرة وهي مفيدة جداً في أدب النفس واستشعارها باخلاص بالنسبة الى أدب السلوك الاجتماعي ووسائلها كثيرة وقد جمعها الله في قوله تعالى « أدفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » فمن عامل الناس بمروءة وشهامة وتسامح وتجاوز أحبوه وفاز بينهم بانجح المقاصد واجل الارب أما العداوة والتباغض والتحاسد والتدابر بين الناس فليس من شر يغوقها في جر المصائب والويلات فيما بينهم وفي الآداب الاسلامية آثار جليلة في المعنى للترغيب في توطيد دعائم هذه الخلة الاجتماعية الجميلة مما يغني عن الاطالة وسيأتي في أدب النفس مع الخالق ذكر حب الله .

المنافسة — وهي التقليد والتشبه بالغير فيما يراه ويرغب فيه لنفسه والاجتهاد في الترقي الى درجة أعلى وهو أمر مفيد

إذا كان فيما يتعلق بالخيرات الاجتماعية والامور الجليلة الانسانية كما قال الشاعر

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إنّ التشبه بالرجال فلاح

وهذا الخلق يوجد في الصغار اكثر مما يوجد في الكبار لحكمة انتظام أمور الخلق ولهذا يتحتم على كل امرئ أن يظهر باحسن المظاهر المؤثرة في منافسيه حسناً ومعنى من غير ما كبر ولا عجب وما اكثر ما تفسد أحوال الذراري من القدوة السيئة الفاسدة في الآداب العامة والاخلاق الشائعة في كل الشؤون المحدقة بهم وتسرق أخلاقهم منه. ويلحق بهذا الخلق اذا كانت النفوس حسنة التربية إما «الغبطة» أي تمنى ان يرى الانسان نفسه بمثل حال المغبوط دون ميل الى تمنى زوال نعمته واما «الحسد» اذا كانت النفس خسيسة فاسدة التربية والحسد هو ذلك الخلق الذي لا يسود صاحبه والذي يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب كما جاء في الحديث الشريف فالحسود لا ينجح أبداً في أموره لتمنيه المكروه للغير والعمل لاعدام نعمته أو الحط من فضله وهو خلق سافل رديء يأله من خصلة في المنافسة ذميمة قبيحة ضارة بصاحبها أيما ضرر قال بعض الحكماء

(الحسد داء الجسد) وقال الاحنف بن قيس (لا راحة لحسود) ومن بليغ ما قالوا في هذه الرذيلة الاجتماعية (الحسد يبتغي نقص المحسود ويدل على كمال الحسود وكفى بالانتقام منه ان يقطع حسرة وهو مع لؤم طباعه وخساسة نفسه واتضاعه ينبه على فضل غيره ويظهر ما خفي من خيره) وفي ذلك يقول الطائي:

واذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

الوفاء — خصلة مدحها الله تعالى (والموفون بعهدهم اذا عاهدوا) — (واوفوا بعهد الله اذا عاهدتم) وعرفوا الوفاء بأنه الصبر على ما يبذله الانسان من نفسه ويرهن به لسانه. وخلق الوفاء خلق محمود ينتفع به كل الناس في مصالح هذا العالم وتنتظم به أمورهم فمن عرف به كان مقبولا موثوقاً به ناجحاً في جميع أعماله ويقابل هذه الخلة من الرذائل (الغدر) لانه الرجوع عما يبذله المرء ويضمن الوفاء به من نفسه وما أشأم الغدر والنكث والتنكب والخيانة على بني آدم لان من يشتهر في الهيئة الاجتماعية بها لم يركن اليه البتة ولا يثق بعهده ووعده انسان فتضطرب حاله وتهوش عليه أموره ويعيش في حال

من المذلة زرية وأمر من الصغار واحتقار الشأن شائن جزاء خيانته وخبث نفسه وطويته

الوقار — وهو الامساك عن الفضول في الكلام والعبث وكثرة الاشارة والحركة خفة ونزقاً فيما يستغنى عن التحرك فيه وقلة الغضب والاصغاء عند الاستفهام والتوقف عن الجواب والتحفظ عند السرعة والمبادرة في جميع الامور . وهذا الخلق من أفيد الآداب النفسية في السلوك في الهيئة الاجتماعية ويدخل فيه (الحياء) والحياء كما في الحديث شعبة من الايمان وهو غض الطرف والانقباض عن الكلام الفاحش والامر الفاحش حشمة وتحشما . ويقابل هذه الخلة من الرذائل الخرق وقلة الحياء والوقاحة وهي الجرأة في الكلام بلا احتشام ولا تحفظ وكثرة الحركات والاشارات وشدة الضحك المميت للقلوب والاتيان بالهزل والهذيان الذي استعاذ منه رسول الله صلى الله عليه وسلم (نعوذ بك من الهزل والهذيان) واكثر ما توجد هذه الخصال الذميمة في أبناء السوقة وأرباب السخف والمجون وأهل الدعارة من غوغاء المدن خصوصاً ولكنه على كل حال أمر شائن دال على سخافة العقول وبعبارة أخرى على

استحكام الجهل والغباوة وفساد الاخلاق في تلك النفوس وقلة مافيها الادبية

*
* *

تلك هي جملة الاخلاق الفاضلة التي يجب ان يتخلق بها المرء بموجب أدب النفس مع الخلق في الاسلام وكلها داخلة في باب المروءة والاذواق السليمة ويجمعها اسم (الحكمة) على أوسع معانيها التي قال الله تعالى فيها (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً) وكلها وما يتفرع عنها قد نبه عليه في حكمة القرآن وآداب السنة المطهرة النبوية . تنبيه حث عليها وتنبيه نهي وتحريم فيما يضادها ولقد تقدمت الاشارة الى شؤم الذنوب والرذائل والقصاص والوعيد عليها ناهيك أن الرذائل في جملتها وتفصيلها مفسدة لشأن الانسان في حد ذاته وعمله كله وهي تتعدى الى تناول افساد حال الهيئة الاجتماعية فمن اجل ذلك كله من شرها أوجبت القصاصات في الشرائع بأجمعها لاقامة قسطاس العدل بين الانام لما ينقصهم من آداب النفوس المؤسس عليه أدب الجوارح لان امثال هاته الفضائل وان لزمت بل وجب دينياً وأدبياً على كل انسان تحريها في نفسه

وفي أهله وولده غير أن مما لا خلاف فيه انها قلما تجتمع في انسان على التمام وان وجدت جملة في مجموع الامة كذلك ما يسمى رذائل من نقيض هاته الفضائل فان شيوعها لهو كذلك ويستحيل ان تجد انساناً فيه عيوب الا وتجد الى جانبها فضيلة او اكثر قد تستحسن منه وتستظرف فيه غير أنه لا ينبغي مع ذلك المرء العاقل ان يقصر من همته ويتخذ ذلك حجة بل يجب اسلامياً لما جاء في الآية الشريفة (فاستبقوا الخيرات) ان يجد ويجتهد ليحصل الفضائل الرئيسة ويتحلى بالخلال الشريفة وان يتجنب الرذائل الشائنة الحسية والمعنوية لان ذلك انما هو الوسيلة العظمى الى نوال السعادة في الحياتين ومفتاح للنجاح والفلاح في كل الاحوال والاعمال (ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم) والدين كما قيل في الاثر الشريف المعاملة معاملة الناس بأحسن الاخلاق واكرم الآداب الاجتماعية ومن لم يجاهد نفسه ليتصف قلباً وقالباً بالمحامد الاجتماعية والمادح الادبية في الهيئة والقيام بكل الواجبات المفروضة على افرادها في سائر الشؤون والتزام الادب النفسي في كل انواع السلوك فهذا قل ان ينال تلك السعادة على التمام بل كان بالشقاء أحرى

وباسم المقصر في حق نفسه وحق أبناء هيئته أولى وملقته اذا غلبت شروره فضائله الاضرار والقصاصات المنصوبة للردع والقامعة للزجر وتقويم معوج الانفس والاعمال وتلك السعادة المطلوبة لن تنال بالراحة في هذه الدار بل الراحة في التعب والنصب واللذة في مجاهدة النفس على الدوام لتحصيل الفضائل والمعارف وابتناء المنزلة في القلوب وعند الرب تعالى بالاعمال الصالحة في الهيئة الموجبة لسلامتها سواء قام بها الافراد او تضافرت عليها ايدي الجماعات تحرياً لاستقامة أمورهم كلها في هيئتهم نزوعاً الى الرقي والكمال الانساني الذي ينساق فيه الانسان بطبيعة العمران وما الشرور والرذائل الا معوقات في سبيله متوضنات لأركانه فهي من قبيل الامراض التي قد يمكن تلافيها او هي بعبارة أخرى كتلكم الحشائش التي تلتف حول اصول الاشجار والنبات الطيب من اصل الفطرة فتعكسها وتوقف نموها وتمتص غذاءها ولهذا وجب على كل امرئ مجاهدة نفسه التي بين جنبيه على استعمال أحسن ما فيها واستئصال ما قد ينبت الى جنب ذلك من رديء حشائش الرذائل خصوصاً ما قد تريه اياه غوايات النفوس انه من اكمل

لحظوظ وانواع اللذات والسعادات وليس هو عند التحيص لدقيق منها فى شيء بل ربما كان من شر جالبات الشقاء والتعاسة والقيام بهذا كله يدخل في ذلك الامر المحبوب المطلوب سواء فى آدابنا الاسلامية او فى آداب غيرنا من تزكية النفس وترقيتها مما لا فلاح ولا نجاح البتة الا به

فرياضة النفس بموجب كل الآداب القديمة والحديثة اذن واجبة وهذه الرياضة او المجاهدة العملية تكون بتهذيب النفس اى تمويدها الفضائل الاجتماعية والاعتدال واستخدام العقل الرشيد فى كل الشؤون الحيوية واجتناب الرذائل والافراطات فى تلكم الاحوال ولا يستثقلن احد ذلك بل لا يعذر فى تركه ذو أدب اسلامي والقرآن المجيد امامه والسنة النبوية بين يديه وكل ماتقرر بواسطتهما من النظامات الاجتماعية والآداب الصحيحة فيه يسر وتيسير من حيث سد حاجات النفوس وتطلعات القلوب بما فيه مندوحة للاخذ بالحلال الصرف وتجنب الحرام المنهى عنه (وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) وقد امرنا بالاخذ بأحسن الاشياء الحسية والمعنوية وامرنا بان نؤدب نفوسنا ونتجنب الفواحش من الرذائل

ما ظهر منها وما بطن وان تحسن المعاملة والسلوك مع الخلق وجعل هذا كله مفتاح النجاح والفلاح بل قطب رحى السلامة في الدنيا ونيل السعادة في الآخرة

ولقائل ان يقول ان الاخلاق لا يمكن تغييرها لانها الخلقة الباطنة أو صورة النفس أو ترشحها من الطبع الآدمي فهي كالخلقة الظاهرة من حيث ان هذا جميل الصورة بهي الطلعة وذاك دميم الصورة قبيح المنظر وذاك طويل القامة وذاك ضعيف البنية فكيف يطمع في تغيير ما يظهر أنه من مقتضيات الطبيعة البشرية لانتظامها به حساً ومعنى ناهيك ان للبيئات حكمها طبيعياً ومعنوياً خصوصاً إذا كانت تلك البيئات الادبية كثيرة الشرور والفساد وهي باطراد الاحوال مطردة الفساد والافساد في الاخلاق بالتلقيح والعدوى من القدوة السيئة بالطباع السوء التي يقول فيها الشاعر

اذا كان الطباع طباع سوء فلا ادب يفيد ولا اديب

على ان هذا كله قول ضعيف لانه لو كانت الاخلاق لا تقبل التغيير والله تعالى يقول (لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم) لبطل شأن الوعظ والتأديب الشرعي ،

وكيف ينكر قبول التغيير بخلق الانسان صاحب الاستعداد الفطري العظيم والقابلية الكبيرة مع أن الحيوان الاعجم قد يتغير خلقه بالتهذيب والتدريب ، فالبازي ينقل من الاستيحاش الى الانس والكلب من الشره الى التأدب والامساك والتخلية (كما هو مشاهد في كلاب الصيد) والفرس قد تنقل من الجماح الى السلاسة والانقياد وكل ذلك تغيير في الاخلاق أخلاق هذا الحيوان الاعجم الغريزية فكيف بالانسان سلطان المخلوقات وصاحب العقل الرشيد ؟ لا ريب أنه أولى وأحرى بان تقبل أخلاقه التغيير وتسلس طباعه لا سيما والنهج ميسر له والطريق طريق الخير مفتوح الباب اسلامياً واجتماعيا لديه وهو بمقتضى سير العالم لو حاد عنه الى ما يسفل بشأنه دون التمسك بما يرقى أمره ويعلى قدره كان ولا ريب الساعي الى حتفه بظلفه إذ العالم في جهاد مستمر فاليقظ الاخذ باسباب الكمال والفلاح هو الناجح الظاهر والمخلد الى أرض الخساسة في الاعمال والسفالة في الاخلاق هو الخاسر ، فهل الاسلام يأمر بذلك ؟ هل يأمر بالعدل والاحسان وينهى عن الفحشاء

والمنكر وكل الاخلاق الذميمة وينجح أهله إلا باتباع ما أمر به والانتهاء عما نهى عنه ؟

فمن تمام النعمة علينا في أدبنا الاسلامي أن أرشدنا الله تعالى الى كل خير أصلي يصلح لكل زمان ومكان كما أمرنا ان نمسك بذلك تمسك فعل في كل ادوار الحياة مما يدل على قبول الاخلاق للتغيير وأن نفوسنا قابلة لأن نضعها حيث أمرنا حتى نصلح لهدايته وفيوضاته القدسية (لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم) ولتمام الابداع في الصنع لم يعط الانسان هذا الخلق بادئ بدء تاما كاملاً وبعبارة اخرى غير قابل للتغيير والتبديل بل الاعضاء الباطنه أو الحواس النفسانية من الادراك والعقل وإن كانت كالاعضاء الظاهرة من حيث أنها تبتدئ تموشيئاً فشيئاً حتى تشتد مع الزمان إلا أنه قد جعل لها فوق ذلك تلك الاستعدادات العظيمة والقابلية الكريمة والاختيار والارادة للتكليف بها والتحوير وتصحيح المبادئ بفضل ما وهب من العقل وقوة الادراك والبصيرة وحسن الاذواق وقبول الهدايات الربانية والفيوضات الوجدانية التي يجب أن تربى وتوقف على المبادئ والمعلومات وهي لها بعد ذلك شأنها من

قوة الحكم واستخراج صحيح النتائج من قاسمها ولكل أصل في مستمد ادبنا من الكتاب والسنة السمحاء

وإذ كان الخير والشر أو بعبارة أخرى الفضائل الانسانية والرذائل الاجتماعية قد بين حالها بياناً شافياً في مبادئ الادب الاسلامي وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حسنوا أخلاقكم » وقال « بعثت لأتمم مكارم الاخلاق » فقد ظهر لنا من هذا كما ظهر لنا مما سبق أيضاً في الآية أن ذلك مطلوب من كل أحد كالعلم الذي طلبه فرض عين على كل مسلم وكالقرآن المأمور العمل بهدايته لا ان نتلوه فقط لمجرد التبرك بتلاوته أو الترنم بالفاظه وكل هذا يرجع علما وعملا الى تلك الغاية السامية من تزكية النفوس وتطهير الاعراق فكيف يدعي مدع بعد هذا كله أن الطباع لا تقبل التغيير وهي مأمورة به ومكلفة وقد ركبت في الانسان كما سبق بكيفية قابلة له ولولا ذلك لما تحول جيل العرب في صدر الاسلام بهداية القرآن من الخشونة والشراسة في العادات والاخلاق اخلاق الجاهلية الاولى الى تلك الاخلاق الاسلامية الجديدة السامية (ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) ناهيك ان الاخلاق

الاجتماعية الفاضلة المأمور بها وأتيت على الكثير منها آنفا ليس فيها خلق الا وله فوائد ومزايا جليلة في انالة النفوس النجاح والفلاح في هذا العالم عالم التكاليف كما تقدم وأن لا شر ولا ضر ولا تقهقر ولا اتضاع الا باتباع اضدادها وغشيان الذنوب وقد تقدم عن ابن قيم الجوزية بيان ما يلحق المرء من آثارها فيجب مجاهدة النفس وتدريبها وتمويدها دائما الخيرات الاجتماعية والنفسية وتحليتها بالآداب والكمالات وأن صعب الامر واستعصى اطال للاسباب الكثيرة المحدقة بالانسان مما يجعل الهمم متفاوته والتفاضل في المزائم والارادات ظاهرا وكلما كانت التربية متأصلة منذ الصغر والقدوة العملية في البيئة حسنة وجميلة كان الامر في اكتساب الفضائل أقوى وأوسخ وأظهر في الكبر على قدر ذلك من المجاهدة مجاهدة النفوس للمؤثرات ومقاومة الغوايات النفسانية على ان النفس لما قد ركب فيها من قوى الشهوة والغضب قد تكون كالدابة الجموح اللازم لها الترويض والتأديب حتى تكف عن الهوى وتنقاد الى العقل بزمام والا صار الانسان عبداً للهوى وبعبارة اخرى أسير شهواته البهيمية ونزعاته الشيطانية فانسلخ عن انسانيته وحرم شرف

الاتصاف بجميل أخلاقها بين بني هيئته فنزل قدمه بعد ثبوتها في جميع أفعاله ولا يعود ينجح في سائر مساعيه مصداقاً للآية الشريفة « قد افلح من زكاها وقد خاب من دساها » والآثار في الباب باب تأديب النفس وتهذيبها لجلب السرور اليها ودفع الشرور عنها والمخاوف مما سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الجهاد الاكبر لهذا الغرض الشريف فضلا عن الغرض الديني الكريم كثيرة فالزم أيها المسلم المصري الفضائل واجتنب في سائر أحوالك الرذائل تحظ بالسعادة الابدية والكمال الانساني الاسلامي ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اكمل المؤمنين ايماناً احسنهم أخلاقاً » ويقول الشاعر « هي النفس ما عودتها تتعود »

﴿ القسم الثاني ﴾

(ادب النفس مع الخالق)

الادب مع الله تعالى — املاء القلوب من عظمة الله — الاسلام والايمان حال النفس المستكملة المطمئنة — التقوى جماع الخير — الاخلاص وصدق النية — تعريف النية — الاخلاص الحق — المحبة لله تعالى — مقامات وأحوال النفس الاخرى — الرجاء والخوف — محاسبة النفس ومراقبتها — التوبة — الصبر — الشكر — التوكل — الزهد — التفكر .

« مثل الايمان كمثل بلدة لها خمسة من الحصون الاول »
« من ذهب والثاني من فضة والثالث من حديد والرابع من »
« آجر والخامس من لبن فما دام أهل الحصن متعاهدين الذي »
« هو من لبن لا يطمع العدو في الثاني فاذا أهملوا ذلك طمع »
« في الحصن الثاني ثم في الثالث حتى تخرب الحصون كلها »
« فكذلك الايمان في خمسة من الحصون أولها اليقين ثم »
« اداء الفرائض ثم اتمام السنن ثم حفظ الآداب فما دام العبد »
« يحفظ الآداب ويتعاهدها فالشيطان لا يطمع فيه فاذا ترك »
« الادب طمع الشيطان في السنن ثم في الفرائض ثم في »
« الاخلاص ثم في اليقين فينبغي الانسان أن يحفظ الآداب »

« في جميع اموره » (الشيخ عبد القادر الجيلاني)

في كل شيء اذا ضيعته عوض وليس في الله ان ضيعت من عوض

لقد تقدم في اول هذا الكتاب ما يجب على المسلم من ادب الاعتقاد مع الله تعالى وتنزيهه وتقديسه والقيام بعبادته لانه سبحانه وتعالى خالقنا ورازقنا ومعيننا ومثيبنا ومجازينا على اعمالنا وافعالنا جزاء كريماً السيئة بمثلها والحسنة بعشر امثالها كما هو صريح مدلول القرآن والسنة وانه تعالى تفرد في علاه موصوف بالكمال المطلق واتقان الصنع وابداع التدبير لخلقه بما لا يمكن أن يقف على كنهه عقل مخلوق على التمام ، وانه تعالى له في خلقه التصاريف بما شاء وكيف شاء ولا يحيط بحكمته أحد ولا يقدر ان يحصى نعمه المتواصلة وامداداته المتوالية انسان لهذا كله كما لزم القيام بحق عبادته وتقديسه وجب اشعار النفوس الادب بحقه بالاخلاص له والحب والتقوى والخوف منه لانه تعالى الفعّال بالحق لما يريد وهو أحكم الحاكمين وارحم الراحمين سبحانه جل شأنه

ولقد مضى القول كما سلف في الاعتقادات والعبادات في أول هذا الكتاب بالايجاز والاختصار فبقي أن أشرح ما هو

لازم من الادب والتأدب النفسي الخالص مع الخالق العظيم مسديناً أجل النعم ظاهرها وباطنها مما لا يمكن حصره ولا عده كما قال تعالى في القرآن المجيد (وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها) ولا غرو فاستصحاب هذا الادب في النفس البشرية واملاء القلوب من عظمته تعالى خشية ورهبة وحياً وأملاً كريماً وتقديساً وتنزيهاً واخلاصاً هو عين العبادة بل هو عين الايمان وتمام السعادة في الاسلام وكل الآيات والاحاديث ناطقة بذلك شاهدة عليه مبينة ان عمل الجوارح والاعتقاد باللسان لا يتم به اسلام المرء وايمانه الا اذا صحبه عمل الوجدان الانساني من استشعار الضمير واتصافه الذي عنه ينبعث باعث الرغبة للقيام بشوق وعزيمة صحيحة لتجويد عمل الجوارح ومراعاة روحها ولهذا فُرِّق بين الاسلام والايمان (وقالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم) وترى شرح هذا مطولا في كتب الاسلام المعتبرة كالتفاسير القرآنية وشروح كتب السنة كشرح مسند مسلم للامام النووي وشروح البخاري وغيره

فالايمان عمل القلب ، عمل الضمير ، والاسلام وان عم

هذا ضمنا لكنه يشمل عمل الظاهر والايمان خصيص بالباطن كما فسروا به تلك الآية النازلة بحق الاعراب ، والاسلام الشامل والايمان الكامل مصدر كل خير وسعادة حقيقية للانسان تستطاب بها كل أعمال الجوارح في الاعتقادات والعبادات وكل المعاملات وترتاح لها النفوس بما لا يمكن ان يتصور في أي سعادة أو لذة أخرى نفسانية ، بل هي لذة فوق كل لذة ، وشعور سام يملو كل شعور بما لا يمكن لاى امرئ أن يصور شأنه أو يكيف حاله واستطابة نفسه به ، ولا عجب فللايمان كما في الحديث الشريف حلاوة وللتقوى كرامة وحباً عند الله جماً وإذا أحب الله عبداً كان كما جاء في الحديث الشريف بصره الذي يبصر به وسمعه الذي يسمع به وتلك هي صفة أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولاهم يحزنون بالمعنى الحقيقي لا بالمعنى الذي يرمى اليه جهلة المتصوفة وغلاتهم.

وهذا الحال للنفس المستكملة أدبها الباطني بحق الله تعالى وقبولها للفيوضات الآلهية واستشعارها الرحمات الصمدانية أمر دقيق ومقام عظيم وقد أطال فيه القول علماء الاسلام

الروحيون وفلاسفة الاخلاق الصوفيون [1] كالامام الغزالى والقشيرى والسهروردى ومحي الدين بن العربي وغيرهم مما لا يدخل تحت مقصود هذا الكتاب للغرض الذى قصدت اليه فيه من الايجاز والاختصار والوقوف خصوصاً عند الحدود العامة والقيود الشرعية البحتة المقصودة بالذات في أدب الاسلام باطناً وظاهراً وأعنى بها الفضائل وأنواع الآداب النفسانية الواجب التحلى بها بحق الذات العلية القدسية ، تلك الفضائل والآداب المثمرة بالحقيقة أجل الثمار والفوائد فى كل أعمال الحياة الدنيوية والدينية كالاخلاص والمحبة والشكر والتوبة الى اشباه ذلك مما تجمعه كلمة « التقوى » المطلوبة من الانسان ليحظي بأجل الارب وسعادة الابد لقول الله تعالى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وقد جعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم « جماع كل خير » وحقيقة التقوى التي هي لباب الطاعة التحرز بطاعة الله عن عقوبته وأصل التقوى اتقاء الشرك ثم اتقاء المعاصى والسيئات ثم اتقاء الشبهات ثم ترك الفضلات مع القيام بمهام العبادات وحسن المعاملات ، وهذا ظاهرها

---

(١) الاحياء للغزالى والرسالة للقشيري وعوارف المعارف للسهروردى الخ

من اتقاء الحدود والقيام بالواجبات أما باطن التقوى وروحها فصدق النية والاخلاص ولهذا قال بعضهم « التقوى عمل بطاعة الله على تورع من الله مخافة عقاب الله » وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله ليس التقى صيام النهار وقيام الليل والتخليط فيما بين ذلك ولكن التقوى ترك ما حرم الله وأداء ما افترض الله فما رزق الله بعد ذلك فهو خير الى خير » وخلاصة القول ان التقوى تلك الصفة التي هي جماع الخيرات يجب ان يتصف بها المرء قبل كل شيء ليصل الى ما بعدها من المقامات قال بعض حكماء السلف الصالح « من كان رأس ماله التقوى كلت الالسن عن وصف ربحه » ويقول الحكيم ابن الوردى في لاميته المشهورة

واتق الله فتقوى الله ما جاورت قلب امرى الا وصل

هذه هي التقوى وثمرتها أما ما بعدها من المقامات التي تستلزمها وتصاحبها او لا تنال الا بواسطتها فكثيرة انما آتي هاهنا على ما هو الاشهر منها وهى مقامات جليلة ومراتب احوال عالية قد لا يظفر بها كل الناس وان كانت مطلوبة من كل الناس فهي كالاخلاق الفاضلة وكل الآداب النفسانية

السالفة الذكر من حيث عدم تساوي الهمم فيها كاعمال الجوارح التي قد يتساوى الناس في الاتيان بها والقيام بحقوقها الا ان هذه امور دقيقة وجدانية وتلك رواتب أعمال ظاهرة منتظمة مع ان تلك روح هذه بلا امتراء ، فاذا أتي المرء بعمل الجوارح بلا التفات منه الى عمل الباطن من مثل الورع والخشية وصدق النية والاخلاص والشوق والمحبة لم يجن من ثمار عمل الظاهر بمقدار ما تشتهي الانفس الكريمة اللوّامة من لذة وسعادة في نفسها ووجدانها بل في كل الاعمال الطيبة المنوطة بها في هذا العالم فضلاً عما تستروح له وتنتظره من أجر وثواب في الآخرة الجامعة لاكمل أنواع السعادات في الجنة دار الخلد والنعيم المقيم التي أعدت للمتقين .

واول تلك المقامات التي سبق أن التقوى تجمعها « الاخلاص » المطلوب في العبادة كما في المعاملة « فادعوا الله مخلصين له الدين » ومبدأ الاخلاص صدق النية إذ العمل يحتاج الى النية والنية تحتاج الى الاخلاص حتى تكون صحيحة ، فاذا كان الاخلاص روح النية فالنية الصادقة روح الاعمال ولقد جاء في الحديث الشريف « إنما الاعمال بالنيات وإنما

لكل امرىء ما نوى » وجاء في حديث آخر كاشف لمعنى الاخلاص ومحل القلوب في نياتها قال عليه الصلاة والسلام « ان الله تعالى لا ينظر الى صوركم واموالكم ولكن انما ينظر الى قلوبكم واعمالكم » ولهذا قال احد العلماء « اطلب النية للعمل قبل العمل وما دمت تنوى الخير فأنت بخير » وقال بعض السلف الصالح « رب عمل صغير تعظمه النية ورب عمل كبير تصغره النية » ومن نصائح العالم سالم بن عبد الله الى عمر بن عبد العزيز (اعلم ان عون الله تعالى للعبد على قدر النية فمن تمت نيته تم عون الله له وان نقصت نقص بقدره) وجملة القول ان عماد الاعمال أية كانت الاخلاص والنية الصادقة من السريرة وهي مفتقرة الى ذلك لتصير به خيراً محضاً على ان النية الصالحة هي في نفسها خير وان تعذر العمل فان ثوابها عند الله باق لاحق بصاحبها كما دلت عليه الآثار ولانها عماد الابتعاد عن الرذائل وعتاد تجنب المساوى والشرور

ولقد عرفوا النية [1] التي جعلوا من مرادفها الارادة والقصد أنها حالة أو صفة للقلب يكتنفها أمران علم وعمل والعلم

(١) الاحياء للغزالى

يسبق العمل لانه شرطه والعمل يتبع العلم لانه ثمرته ، ومن لوازم العمل بعد العلم الارادة والقدرة ، فالعلم يوقف على النافع والضار من الامر وبالارادة يعزم المرء ويختار وبالقدرة يتم العمل على الوجه المطلوب ، فالاعتقاد أو العلم اللاحق بالنفس الراسخ فى الذهن أصل والارادة الباعثة أى القصد تابعة له والقدرة العملية خادمة للنفس في العمل بحكم الرغبة والغرض وهذا الغرض هو المقصد المنوى والانبعاث هو القصد أو النية وانهاض القدرة لخدمة الارادة بتحريك الاعضاء بالاختيار هو العمل .

وهذا الباعث من النية يرجع كما شرحناه الى تمكن الشخص من الاحاطة والعلم وقوة التمييز النفسى المحمول على هداية الله الملقاة في الروع من قوة الاحاطة والادراك والميل الوجدانى الفطرى ثم بالتوقيف على المبادئ الصالحة واضدادها دينياً ودنيويا المثبتة في الشرائع الآلهية والآداب البشرية وبذلك يصح للمرء الحزم والقطع في الاختيار والتفضيل بالنية الصادقة والاعمال الصالحة التي بالتكرار تصير ملكات للنفس وما لم يكن للانسان هذا الحال لا ينبغي ان ينتظر منه صدق النية والعزيمة إذ يكون الانسان كالصبي لا يفرق بين الضار والنافع والغث

والسمين الا بما أفادته بالطبع عادات مجتمعه وربما صرفت النيات فيها والمقاصد والارادات والاعمال التابعة الى ما يضاد روح الادب الديني إما للجهل بمبادئه الحقة أو لانصراف المزاحم عنها لخفاء فوائدها وقيام شبه فوائد غيرها من المبادئ مقامها وان كانت ضارة أولا تساوى منافعها منافع تلك المبادئ الدينية النفسانية فلو صدقت النيات أى خلصت المبادئ من غواية الضلالات والسفاسف الشيطانية لما أديت العبادات وأجريت الاعتقادات وسائر الاعمال الدينية مثلا كرسوم وشعائر تقليدية بل لروعى فيها وفي كل الاعمال روحها وآدابها الخفية ولجنى هذا الانسان من وراء هذا في نفسه وفى عمله كله أجل الاحوال واللذات وأسنى السعادات الابدية ولقام له من نفسه بسبب هذا ملكة «الاخلاص» الحق ومقام المخلصين كبير وأمره عند الله خطير قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما من عبد يخلص العمل لله أربعين يوماً الا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه» وقال عليه الصلاة والسلام لمعاذ «اخلص العمل يجزك منه القليل» وقال العالم السوسى «الامر كله يرجع الى أصلين فعل منه بك وفعل

منك له فترضى بما فعل بك وتخلص فيما تعمل فاذا أنت قد سعدت بهذين فزت فى الدارين »

والاخلاص هو الاتيان بالاعمال خالصة لا يشوبها أقل رياء قياماً بواجب حقها سواء في العبادات أو فى سائر الاعمال قاصداً بذلك مراد الله تعالى منها لعباده وتحصيل ثوابه الاخروى عليها ومن يتحلى بهذه الصفة صفة الاخلاص الديني لاجرم يكون بمأمن من تلك الخصال الذميمة من الرياء والخداع أو النفاق لانتفاء هذه الكدورات الشيطانية المفسدة المحبطة للاعمال عنه بحلول الاخلاص القلب وهو المثمر لجميع المحامد والفيوضات الرحمانية على القلب البشري الذى جاء في الحديث أنه مسكن الخلاق تعالى اشارة الى ذلك من الاخلاص والتقوى والطهارة النفسية والمحبة والتوكل والثقة بالله تعالى المظيمة النفع .

أما المحبة محبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم التي هي فرض عين فثمرتها من أجل ما يتصف به من المقامات في الطاعة والتقوى لان من أحب أخلص الطاعة وأصدق النية في العمل بما يرضى المحبوب . فأصل الاعمال الدينية حب الله

وحب رسوله الذى أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وهذا منتهى الكرامة في الاسلام وأرفع المقامات ودرجات أهل الايمان .

ومحبة الله للمؤمنين وحبهم له منصوص عنها في الكتاب العزيز « يحبهم ويحبونه » وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم من شروط الايمان حب الله وحب رسوله « لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما » وروح هذا الحب ووسيلته المتابعة متابعة الرسول بالايمان والاعمال والاخلاص فيها كما فى الآية الشريفة (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله)

والمحبة أصل من أصول قيام العالم العلوى والسفلى في حركات الافلاك والكواكب ونواميسها من الجاذبية والحركة ونحو ذلك من تفاعلها وتماسها وقيامها بأمر الله وهي أى المحبة بالنظر الى ما نحن بصدده جنس تحته انواع متفاوتة فمنها ما ذكرت بحق الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وفسرت المتابعة بالطاعة والتقوى والاخلاص والاجلال والتعظيم فهي من أجل وأشرف أنواع المحبة التي هي أصل السعادة

ورأسها والتي لا ينجو احد إلاّ بها ثم لها مقام آخر أعلى واشرف من وصل اليه فقد ملئ قلبه هدى ونورا وشوقاً ورغبة كما قيل

خيالك في عيني وذكرك في فمي ومثواك في قلبي فأين تغيب

وهذا ولا ريب ارفع مقامات الحب واعظمها ، ولهذه المحبة آثار وتوابع ولوازم من الذوق والحلاوة والشوق والانس والقرب فالمحبة كالارادة اصل من اصول الدين واصلها وتوابعها تظهر في الطاعات واجتناب المحرمات ثم يترقى منها الى مقامات أعلى في القرب والاتصال ، وكل فوائد المحبة لله وارباحها عائدة على المرء من رفع الدرجات ونوال أسنى المقامات بحضرة رب الارباب وهناك ولا ريب كمال اللذة والسرور والفرح والحبور لكمال المحبوب وكونه تعالى فوق كل مطلوب ومحبوب .

ولقد أطال الامام حجة الاسلام الغزالي [1] في تحقيق معنى الحب لله متدرجاً في البرهنة عليه على حسب طريقته الفلسفية الدينية بان الحب بعد ان ينتج عن التصور والادراك يرجع الى خمسة أسباب (١) حب المرء لنفسه (٢) حب من يحسن اليه (٣) حب من يستحق المحبة لجماله (٤) حب من

---

(١) الاحياء للغزالي

يستحق المحبة لكماله (٥) الحب للمناسبة الخفية بين المحب والمحبوب. ثم برهن على انه لانحصار كل صفات الكمال والجمال والاحسان والارتباط بين الخالق والمخلوق في ذاته وصفاته تعالى الظاهرة والباطنة لهذا كان لا يستحق المحبة الحقيقية الا الله جل شأنه ولقد أفاض في الاحياء بهذا الصدد وأستنتج بحق ان محبة الله تعالى ومعرفته والشوق اليه هي أجل اللذات وأكمل السعادات المدركة بالعقل والبصيرة الباطنة كما هي مدركة بالبصر الظاهر لكل ناظر الى جمال عمل الصانع تعالى من هذا العالم وبديع صنعه وعظيم إحكامه مما يجذب القلوب ويدهش الالباب ويطرب النفوس ولله در ذلك الشاعر الحكيم الذي أدهشته عظمة الصانع تعالى فانصرف بكليته الى حبه فقال

كانت لقلبي أهواء مفرقة ... فاستجمعت مذ رأتك العين أهوائى
فصار يحسدني من كنت احسده ... وصرت مولى الورى إذ صرت مولائى
تركت للناس دنياهم ودينهم ... شغلا بذكرك يا ديني ودنيائى

ولا يتصور ان العبد يحب الرب فالرب تعالى لا يحبه ما دام هناك الحب والاخلاص وصدق النية وفي الحديث «من تقرّب الىّ شبراً تقربت اليه ذراعاً ومن تقرب الىّ

ذراعاً تقربت اليه باعاً ، فالمرء إذا احب الله تعالى حباً خالصاً عاملاً بأمره منتهياً عن نهيه أحبه الله وجزاه على حبه له بالقيام بأمور الطاعات أضعافاً مضاعفة وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة بل كان كما تقدم في الحديث بصره الذي يبصر به وسمعه الذي يسمع به وجعله بالمعنى الحقيقي من أوليائه وأصفيائه الذين لاخوف عليهم ولاهم يحزنون وهذا منتهى الرضا وتمام السعادة لانه بالحب والاخلاص تنتظم امور المرء العملية التعبدية والتعاملية وبذلك تستقيم لهذا الانسان الاحوال في الهيئة وتصفو له الموارد والمصادر في الحياة الدنيا وينال حسن الثواب في الحياة الآخرة ونعم أجر العاملين

* * *

قلت إن التقوى جماع الخلال الشريفة والأحوال النفيسة المنيفة من صدق النية والاخلاص والمحبة الى آخر ما في الباب وهي ولا شك تنتج تلك الاحوال والمقامات العظيمة من الرجاء والخوف والمراقبة والمحاسبة والشكر والتوكل والزهد والتفكر في سائر أحوال السلوك النفسي بازاء الخالق تعالى وغب التضلع من رحيق القرآن والتأدب بادب السنة النبوية المطهرة ، فهذه

الاحوال مما سآتي عليه الآن هي وسابقتها كلها أحوال ومقامات سامية أخذ بعضها برقاب بعض ولا ينتجها ولا ريب غير رقي الشعور الديني السامى والايمان الكامل الذي يتطلبها ويستلزمها بالتساوي واحدة واحدة

وشرح هذه الاحوال الذوقية النفسانية العظيمة المتسلسلة المرتبطة هي وسابقتها من النية والاخلاص والمحبة أيما ارتباط كأنها الحلقة المفرغة والتي هي من أهم شروط الاوصاف الدينية وآداب النفوس السامية حيال عظمة الله جل شأنه وعز سلطانه مما يضمن للمرء المتصف بها ولا ريب النجاح والفلاح في كل الشؤون الدنيوية والاخروية ويشرح صدور المؤمنين ويثلج افئدتهم هي ان « الرجاء والخوف » رأس العمل ، والرجاء وصف من أوصاف النفس عند ما تدرك ما وراء الايمان والتقوى والاخلاص والمحبة الى أشباه ذلك من مقامات عظيمة ودرجات عند الله تعالى عليه كما هو مدلول الكتاب العزيز والسنة النبوية الشريفة فتعمل راميه واثقة بنوال منازل القرب ودرجات الاعزاز والاكرام ونعمت الغاية ونعمت الواسطة الموصلة لها من العمل الصالح حتى قال ابن عطاء الله السكندري

رحمة الله عليه في حكمه المشهورة في تعريف الرجاء الحق « الرجاء ما قارنه عمل والا فهو أمنية »

أما تلك الحال الشائنه من التمني بلا عمل كالذي يقول في مثلها من أمر الدنيا الشاعر :

وما طلب المعيشة بالتمني ولكن القِ دلوك في الدلاء

فلا ثمرة لها البتة ولا هي بذات جدوى وشر منها تلك الحال الزرية من اقتحام الموبقات واقتراف الذنوب وكونا الى عفو الله ونوال مغفرته فهي جهل وحمق وضلال مبين وذنب من الذنوب عظيم لانه جرأة على الله والجزاء كما بينه تعالى من جنس العمل والثمر من نوع البذار ويقول الشاعر

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ان السفينة لا تجري على اليبس

ولقد قال الصوفي الكبير معروف الكرخي رضي الله عنه « طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب وارتجاء الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور وارتجاء رحمة من لا يطاع جهل وحمق »

فالتمسك بالعمل بالاسباب حسية ومعنوية ينتج السلامة ويقوى الرجاء بعكس حال التمادي في المعاصي غروراً مع الاصرار والتمني ورجاء العفو بلا ندامة على التفريط في جانب الله تعالى ولا

اقلاع وهذا لا ينافي ما جاء في فضل الرجاء وجاء غفران الذنوب الذي هو من حق الله تعالى وحده المطلع على السرائر والذي يخاطب عباده التوّابين الاوّابين بقوله تعالى « ياعبادي الذين اسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا » فمع وجوب عدم القنوط من رحمة الله وعفوه وغفرانه ووجوب الرجاء وحسن الظن بالله مع هذا كله لابد من التوبة والاقلاع عن المعاصي والذنوب ظاهرها وباطنها وصريح الآية « انما التوبة للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب » أما التمني والتمادي في الغرور والشرور بنفوس متصلبة وقلوب متحجرة مصرة على الخطايا فله قسطه من الحساب والعقاب كما أن للنفوس اللوّامة والوجدانات الاوّابة نصيبها من رحمة الله وعظيم غفرانه للخطايا والذنوب « ومن يغفر الذنوب الا الله » بشرط عدم الاصرار والاقلاع عنها بتاتا بتوفيق الله وهدايته وعزيمة النفس وارادتها حتى تستكمل النفس شروط التوبة النصوح خوفا من الله تعالى ومخافة الله كما جاء في الاثر الشريف رأس الحكمة .

وحال هذا الفريق من عظيم أحوال « الخوف » من

الذنوب والخطايا الذي هو في مقابل الرجاء في استقامة احوال الآدميين وحسن سلوكهم الديني والدنيوي لانه لعلم المرء المتأدب بالادب الديني المتصف بالايمان اليقيني بما جعل الله عز وجل في مقابل ارتكاب المعاصي والذنوب والمظالم من العقوبات الشديدة الاخروية والدنيوية فبحسب معرفته بعيوب نفسه وشعور وجدانه بما هو واقع فيه يخاف الله رب العالمين ويتقيه في نفسه فيكون له من ثم رادع وزاجر منه اليه عن الاقدام على اقتراف ما يقبح الاتيان به من الافعال القبيحة والاعمال الشائنة فينجو بذلك من عذاب الله ويستقيم له من ثم عوده . على ان حال الخوف ومقامه عند العارفين كبير لان لاحوال التقوى والمحبة لذة من نفوسهم ووقعاً من قلوبهم يجعلهم أبداً في حال من الاحترام والتعظيم والورع والخشية عظيم جداً فهم أبداً يعملون على رجاء كما يعملون على خوف خوفاً من الحرمان من تلك المقامات العالية فيجدر بالمسلم بمقتضى أدب دينه النفسي أن يشعر قلبه مخافة الله تعالى ويتقي كل ما يوجب السخط وغضب الرب تعالى ومن خاف سلم ورأس الحكمة كما تقدم في الحديث مخافة الله تعالى والذي يخاف الله

يلجأ اليه لانه لا مفر منه الا اليه فيعمل بما به أمر وينتهي عما عنه نهى وزجر ولهذا قال الحكيم أبو القاسم الصوفي « من خاف شيئاً هرب منه ومن خاف الله هرب اليه » وهذا اللجاء الى الله تعالى خوفاً من الله يقتضي ولا ريب تزكية النفس بتأديب الجوارح وتطهير البواطن من كل خلق ذميم سواء مع الخالق تعالى أو مع الخلق من ذوي الحقوق عليه فتصير المعاصي والرذائل الخفية والظاهرة حيال هذا الخوف مكروهة ممقوتة مستهجنة مطرودة شياطينها من النفس عند المرء الذي يشعر من نفسه بازاء هاته الشرور والمساوى « انه كالسقيم العارف بدائه فيحتمي مخافة طول السقام » كما قال الحكيم الصوفي المشهور ذو النون المصري

وهاهنا يأتي دور « المحاسبة والمراقبة » محاسبة النفس ومراقبتها في الاعمال والاحوال التي يجريها المرء أو تتصف بها نفسه لان المرء لما يعلم ان الله تعالى يحيط بكل شيء علماً خافيه كباطنه وفي القرآن « واعلموا ان الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه » والآية الاخرى « ويعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور » فلهذا يجب على كل امرى عاقل أن يحاسب نفسه ويراقب

ربه حتى ينال السعادة وتكثر حسناته « يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم » « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو ان بينها وبينه أمدا بعيداً » ناهيك أن في هذه المحاسبة وتلك المراقبة استصلاح حال الدنيا وهو سر تجويد كل الاعمال الاجتماعية فيها فتنتظم للمرء حال دنياه وتصفو له موارد حياته من الاكدار والمكروهات الذميمة كما تعظم له الحسنات في الآخرة .

وهذه المحاسبة للنفس انما تكون عادة للعقل المتعلم المثقف المسيطر عليها لانه لما كان هذا العقل الوهبي منه والكسبي قد جُعِلَ بفضل الله كالسلطان الوازع الذي يحسن سياسة ملكه ويتقن تدبير دولته فهو يوظف للنفس الوظائف المبينة في الشرع والادب النفسي ولا يكتفي بذلك بل لمعرفته بعظم المسؤولية يراقبها ويحاسبها حساباً دقيقاً اذا هي قصرت أو أهملت أو خالفت أو خانت وهذا العمل من العقل الرشيد له أسوة بما يجري من الاعمال الدنيوية فيما بين الخلق وبعضهم مما هم فيه مسوقون من الارتباطات العملية بل هو لعمري أعظم من ذلك فيما يجب أن يكون بين المرء ونفسه لان الفلاح

والنجاح مقرونان بهذا مرتبطان به في كل تلكم الشؤون فلذلك كان سبب كل خير ومفتاح كل سعادة وهناء فيجب على كل انسان عاقل يؤمن بالله واليوم الآخر والحالة هذه أن يقوم بمحاسبة نفسه التي بين جنبيه والتي هي كما في الحديث الشريف تحطب عليه ولقد حفت الجنة بالمكاره كما حفت النار بالشهوات فلا ينبغي للمرء أن يغفل أمر مراقبة نفسه في هذا العالم ويدقق في مراقبتها ومحاسبتها ومجاهدتها في كل حركاتها وسكناتها وشهواتها ونزعاتها الاجتماعية اذ كل نَفَسٍ من أنفاس عمر الانسان جوهرة نفيسة لاعوض لها ويمكن أن يشترى بها كنزاً من الكنوز لا يتناهي نعيمه فانقضاء هذه الانفاس ضائعة أو صرفها فيما يوجب الخسران والهلاك لا تسمح به نفس عاقل فوجب المراقبة والمحاسبة والمعاتبة والزجر والتوبيخ للنفس على تقصيرها وانزجاجها في المفاسد حتى ترجع عن غيها وتؤوب الى الصواب والرشاد من قريب لان العمر لا يعلم أجله الا الله تعالى فاذا أصبح المرء فليشارط نفسه على عمل الخير واذا أمسى فليحاسبها على ما أتت من عمل ويوبخها على التقصير والتفريط وليعلم ان عليه من الله رقيباً عتيداً وأنه مجزى بعمله

وانه تعالى شاهد أمره قائم على كل نفس بما كسبت ولقد جاء في الحديث الشريف « أعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك » شعر

ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا ان ما تخفيه عنه يغيب

وهذا الحال حال المحاسبة والمراقبة للنفس يقتضي بالطبع تلك الحال العظيمة من « التوبة » (والله يحب التوابين) مما قد يقترف من الخطايا والذنوب ، ومقام التوبة وتجديدها والاستغفار من الخطايا والدعاء والضراعة الى الله لكشف العيوب والذنوب والعون على تسديد الاعمال وتجويد الافعال أمر منصوص عليه في القرآن المجيد والسنة النبوية الكريمة (وتوبوا الى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) وانما للتوبة آداب وشروط أهمها اصداق العزيمة واخلاص النية ورد المظالم وغسل الذنوب بماء الندم ودموع الاسف والاشفاق والاستغفار والضراعة الى الله بقلب ملؤه الخشوع والانابة والاستحياء من الله تعالى فيما قد فرط من النفس وبدر من الجوارح والتوبة النصوح تخرج العبد من حال البعد الى حال القرب بل تجعله يلقى الله وليس عليه شاهد بذنب ، وباعث التوبة بعد هداية الله ان الذنوب حجاب

تحجب القلب وتحرمه حلاوة الايمان الذى يزيد وينقص تبعا لاحوال النفس في تشبثاتها وتحرمه ثمرة الاعمال وحبوطها فاذا كان الوجدانى ممن فاق لذة الشعور والاحساس بواسطة ماهو حاصل لديه من قوة الايمان والمعارف الذوقيه المكتسبة تألم لوقوع الذنب واقتراف الخطيئة فحصل الندم وكثر التوبيخ الوجدانى للنفس بقدر معرفته وحكمه على الاشياء وسموم المعاصي واحباطها للاعمال فيسرع من ثم الى التوبة ويبادر بها من قريب وهذا كله داخل فيما عرفنا الله عنه بقوله تعالى «وليست التوبة للذين يعملون السيئآت حتى اذا حضر أحدهم الموت قال اني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار» (انما التوبة للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب) فالتوبة التي أوجبها الله على عباده ويحبها منهم ويحبهم من أجلها هي التوبة التي تكون عن ارادة وعزيمة هي تلك التوبة النصوح التي لا يعود المرء بعدها الى ما اقترف من الآثام ثانية لان العود اليها من أقبح أنواع الذنب والجرأة على الله والتعرض لكبير سخطه قال يحيي بن معاذ الرازى «زلة واحدة بعد التوبة أقبح من سبعين قبلها» فالتوبة النصوح كما قال الاستاذ أبو بكر

الواسطي رحمه الله « أن لا يبقى أثر من آثار المعصية سراً وجهراً » وقال ذوالنون المصري ذلك الصوفي الكبير « الاستغفار من غير اقلاع توبة الكذابين » على ان من يمتلك قلوبهم نور الايمان وتملأ أفئدتهم أضواء التقوى على أشرف أحوالها مدركين لذلك المبدأ الذي يرتكز على قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « ترك الخطيئة أهون من طلب التوبة فاغتنم غفلة المنية » قد يكون لهم من ذلك أعظم درع وحرز حريز يقيهم شر الوقوع في كبائر الذنوب وصغائرها وانما لما يعرض عادة للنفس البشرية في هذا العالم من العوارض لزم أخذ الحيطة ولزم اشعار النفس دائما بالتوبة والاستغفار مصداقا للآية الشريفة (وتوبوا الى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) ولقد جاء في الحديث عن سيد المعصومين من رسل الله قال (انه ليغان على قلبي واني لأستغفر الله في اليوم سبعين مرة) وليس في هذا الا زيادة قرب من الله وهداية في سبيله وتمسك بالخير ونفض الايدى من الشر والغفلة حتى تستيقظ النفس دائماً الى تجنب الشر خوفاً منه مهما صغر وحقر والمحاسبة والمراقبة على ما يفرط منها والقيام بادراع هذا الدرع النفساني المنيع من التوبة

والتحرز من الاحوال الكبيرة التي تطرأ على القلوب والنفوس من مجريات الاحوال الاجتماعية التي قد تصادف الانسان أو هي في الواقع من ملازمات العمران البشرى والتندم عليها حتى لا تعود النفس الى مثلها أبداً وتعتاد من ثم الكمال النفسي ازاء حكم الوجدان الشريف والشرع المنيف وهذا البحث طويل قد وفاه الامام الغزالى حقه في الاحياء وصاحب غنية الطالب الشيخ عبد القادر الجيلاني فى كتابه المشار اليه آنفا وغيرهما من أجلة أئمة الاخلاق الدينية

أما الصبر ذلك الذى ذكره الله تعالى في محكم التنزيل ومدحه وبشر من يدرع به (واصبر وما صبرك الا بالله) و(بشر الصابرين) (إنما يوفي الصابرون أجرهم بغير حساب) الى آخر ما جاء في ذلك من الآيات والحكم فهو من أرفع المقامات في أدب الدين الاسلامي النفسي وهو خصيص بالانسان لتوسطه في خلقته بين الملك المستغنى عنه لكماله والبهيمة التي لا تقدر عليه بارادتها فاذاً قد خُصَّ فضله وفضيلته بالانسان كما خص أجره به وبُشِّر بذلك أيما بشارة فمن صبر وملك نفسه في جميع أحوالها ونزعاتها بعزيمة ثابتة وارادة قوية

وقلب منيب دخل في جملة الصدّيقين والملائكة المطهرين ومن انعكس أمره انخرط في سلك البهائم وباء بالخسران وبعد عن صفة الكمال

والصبر يكون بحفظ الحواس والجوارح عن الاندفاع في الشهوات المنهي عنها وتحمل مشاق الامور التي لا حيلة لدفعها بجنان ثابت وجأش رابط بلا تململ ولا تسخط على الاقدار الجارية من قبل الله تعالى وتصاريفه في خلقه خصوصاً من حيث الارزاق والامراض على ان التزام الصبر والرضا عن الله مع التحايل على دفع الامور بالتي هي أحسن من مثل السعي والتداوي بما أرشد اليه الشرع والعرف الحسن قد ينتج للمرء الخير كل الخير دنيا وأخرى فبالصبر عن الشهوات تنال الدرجات وبالصبر على المكاره توفي الاجور بغير حساب.

ولعظم فضل الصبر دينيا جعل شطر الايمان كما جعل شطره الآخر (الشكر) وهذا المحال أي محال الشكر لله تعالى قد يرى لعين المؤمن المخلص لله انه تعالى حقيق به على كل حال لان نعمه المتواصلة على الانسان قد تكل عن حصرها وشكرها الالسن البليغة وأن له تعالى شأنه حتى في الضراء

عند التمعن وتدقيق النظر ألطافاً خفية وحكماً تحار فيها العقول وتقتضى عند ذوى النهى واولى الالباب غاية الحمد وغاية الشكر طلباً للعفو والعافية وتحصيل الاجر في نعمه المتواصلة بالحق علينا ولقد قال الله « وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها » وقال تعالى في زيادة النعم بالشكر عليها « ولئن شكرتم لأزيدنكم » وقال تعالى في جزاء الشاكرين « وسنجزي الشاكرين »

ومقام الشكر ينتظم كل المقامات الدينية والاحوال النفسانية من علم وحال وعمل ، فالعلم بالعلم بأن كل النعم الكونية المتواصلة على الخلق من الانشاء والايجاد واخراج الارزاق والاقوات حتى الهواء والنسيم العليل الذى نستنشقه ثم تنمية الابدان وتقوية العقول وهدايتها الى أحسن الامور الاجتماعية والعلمية وارسال الرسل الى آخر ما في الباب من النعم المتواصلة بما لا يحيط به العد أو يحصره الوصف فكل هذا من جلائل النعم التي يجب شكر الله عليها وحمده والثناء عليه تعالى من أجلها بما هو أهله من المحامد والتنزيه لذاته والتمجيد لاسمه عز وجل فمن ثم يكتسب الحال أى الاتصاف ورسوخ ملكة المبدأ الموجب عند المرء العمل أى القيام بأداء

الشكر الجميل والحمد لله تعالى بالجنان الذي هو مصدره واللسان الذي هو مورده غالباً ، وهذا الحال من الشكر ومقامه الجليل تتفاوت فيه الهمم بحسب اتساع نطاق عقول الخلق وفهومهم لصنع العظيم والتدبير المحكم الذي يتمتعون بنعمه ويرتعون في بحابحه من فضل الله الحكيم العليم الذي يجازي الشكور ويشكر لعباده المؤمنين وتشمل رحمته العالمين ويثيب الحسنة بعشر أمثالها ، فالشكر واجب على كل حال لله تعالى رب العالمين رب القوة والعظمة رب الرحمة والعطف والحنان لانه اذا كان الانسان مهما انحط أدبه وسفلت نفسه قد يشكر الى من يحسن اليه أدنى احسان للقاعدة المشهورة شرعياً وأدبياً من ان شكر المنعم واجب فالرب تعالى مع كل هذه النعم والرحمات والالطاف المتواصلة الصادرة منه تعالى الى خلقه أحرى وأجدر بأن يشكر ويحمد لدى أهل الايمان بانواع الشكر لانه المستحق بما نصب من دلائل عظمته وفيوضاته العميمة لجميع المحامد والثناء والشكر ولذلك جاء في الآية « اشكر لي ولوالديك » ولكن كثيراً من بني آدم للجهالات الغالبة والضلالات اللاحقة ينأى بجانبه ويعرض عن شكر

المولى أو لا يشعره نفسه بالمقدار اللازم كما قيل

ومن الرزية أن شكري صامت عما فعلت وأن برك ناطق
وأرى الصنيعة منك ثم أصرها انى اذاً لبد الكريم لسارق

والشكر للناس فيما يستحقون عليه الشكر والثناء واجب كحق الله تعالى فيه ولذلك جاء في الاثر الشريف « لم يشكر الله من لم يشكر الناس »

ومن أجل المقامات واجل الاحوال النفسانية مقام « التوكل » وقد قال الله تعالى « وعلى الله فليتوكل المتوكلون » و « من يتوكل على الله فهو حسبه » وهذا الادب النفساني ككل أحوال النفس الاخرى الواجب التأدب بها مع الله تعالى يبنى على علم راسخ بقدرة الله عز وجل العظيمة الغالبة وجميل صنعه وتدبيره للاشياء كلها بما لا يمكن لعقل انسان ان يستكنه على التمام دقيق الطاف الله وعظيم رحمته وعونه وعنايته بخلقه فترى النفس ان هناك منه تعالى لا من سواه سنداً اقوى وعضداً نصيراً يجب ان يعتمد عليه ويستعان به في كل الاحوال والاعمال والجهادات الحيوية لا على ما يفهمه بعض جهلة المتصوفة من الاستغراق في رسوم العبادة وترك العمل والسعي

والانقطاع جملة عن ذلك وترك التداوي من الامراض مثلاً وكذلك تلك الاحوال والاعتقادات الفاسدة من العوام بالنظر الى الاستعانة بالاولياء والصالحين ورمي الحمول عليهم وهم يبرأون الى الله من تلك الضلالات الى أشباه ذلك من أحوالهم الفاسدة فان هذا وذاك كله ليس من التوكل في شيء بل هو من البله والتعنت بالنسبة الى أحوال جهلة هؤلاء المتصوفة ومن شر أنواع الجهل والضلال والجرأة على الله تعالى بالنظر الى أحوال العوام بل هو ضرب من الشرك الخفي وعدم التوكل الحقيق وصرف الوجوه عن غير المعبود الأعظم جل جلاله الذي له وحده التصريف الاعلى ولا شفيع الا من بعد اذنه لمن ارتضى فالمراد بالتوكل على الله إنما هو قيام الناس بتدبير مصالحهم واثقة نفوسهم مع ذلك بمعونة الله لهم في كل أمورهم وحلول بركته تعالى في جميع أعمالهم ومساعيهم وظفر نفوسهم بمبتغياتها الحقة المبنية على المبادئ الصحيحة الشرعية في القيام بكل الاعمال وهذا قد يرشد اليه بالنظر الى ما أنا بصدده الآن من حيث المساعي العملية معنى الحديث الشريف « لو توكلتم على الله حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح

بطاناً » فان للطير ككل ذى حياة في سعيها على أقواتها وأرزاقها حركات موزونة وطباع منتظمة تبكر لها بكور الغراب وتجرى فيها تحيل الرهان ثم تأوى في نهايتها الى أوكارها واعشاشها ولعمرى ان هذا هو ألذ وأسعد حال ترتاح اليه النفوس ويوافق ناموس الله في خلقه مما قد تجد فيه الانفس الانسانية المتدينة راحتها ومعونة الله حقيقة لها فيها ولذا جاء في الحديث الشريف للحث والترغيب (بارك الله لأمتي في بكورها) فالتوكل لا ينافي البتة ملابسة الاسباب التي لا تنكر وحديث أعقلها وتوكل مشهور مبين لفضل الاسباب غير قادح في فضل التوكل ولا في معناه الديني لانه خروج عن الاسباب في الباطن ورجوع اليها في الظاهر وهذا منتهى درجة الكمال في التوكل عند أرباب هذا الكمال الديني فشواهد الكتاب العزيز كلها ألسنة ناطقة دالة على الاسباب ثم على مسبب الاسباب فالاتصاف بالتوكل عمل بالاسباب وركون الى مسبب الاسباب وهذا هو المبدأ الصحيح في استصحاب التوكل الذى يأمر به الله ويجب اشعار القلب به في جميع الاعمال والاحوال وان كان ركونا الى الله ذى الطول

والحول وحده ، ولا ريب ان هذا الحال من الاتصاف بالتوكل مثمر لاجل النتائج في كل الامور الحيوية الحسية والمعنوية وهو من الامور الخفية ككل الآداب النفسانية مع الخالق فيكون القلب معلقاً بالخالق وحده مسبب الاسباب ومعين العباد متوكلا عليه واثقاً تمام الوثوق بعظيم فضله وكبير عونه والجوارح متأدبة بأدب الشرع في التمسك بالاسباب عاملة بها ونعم رأس المال التوكل ونعم ما يجنى من ثماره وفوائده بالاسباب وأرباحه ولقد قال الله تعالى « وفي السماء رزقكم وما توعدون » وقال تعالى « فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه » وقال تعالى في اثمار القلوب الاطمئنان ومبدأ التوكل « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » والآيات الاخر الصريحة في التوكل وأمثالها لتدلنا صريحاً على حقيقته المطلوبة له تعالى منا من حيث وضع ثقتنا بفضله وعونه ونصره في كل أمورنا وهو تعالى نعم العون ونعم المعضد ثم العمل بالاسباب ليتم أمره في خليقته بحسب ما جعل من سنن لها ونظام مما لا سبيل الي تبديله ولا تغييره

ومن أشرف المقامات الناتجة عن التقوى ومعرفة النفس

بحقارة هذا العالم وحياته الفانية وشعورها بعظم جلائل النعم في الدار الآخرة «الزهد» الذى هو انصراف الرغبة الخفية النفسية عن حظوظ هذا العالم الفانى وملذاته غير الباقية انصرافاً قلبياً بتقصير الامل بالمعنى الصحيح والزهد فيها بما ترى آثاره فى الاحوال العملية بمراعاة البساطة والزهادة في سائر مقامات الحياة وحظوظ النفوس فيها اذ للتفخل والتأنق مساويهما وكراهيتهما في الدين كما أن للزهد والتزهد حكمهما وفضلهما رغبة فيما عند الله من الثواب العظيم والنعيم المقيم وصرفاً للنفس عما يفسد عليها أحوالها الادبية وأعمالها المادية ويباعد بها عن سلوك طريق الآخرة وحسن السلوك فى الدنيا .

والزهد كالتوكل ليس معناه ترك الاسباب أو كل حظوظ النفس في هذا العالم بل قد يكون المرء غنياً وزاهداً قانعاً في وقت واحد كما قد يكون لا غنياً ولا متورعاً زاهداً ولكن حشو قلبه ونفسه الطمع والشره والجشع والغل والحسد وحب السرف والترف في زينة الدنيا وزخرفها اذا هى أقبلت عليه مع قلة همته في العمل وحب البطالة والكسل وهذا هو شر حال للناس ، عن بعض الصحابة رضى الله عنهم قال : قلنا يارسول الله

« أي الناس خير قال كل مؤمن مخموم القلب صدوق اللسان قلنا يا رسول الله وما مخموم القلب قال التقي النقي الذى لا غل فيه ولا غش ولا بغي ولا حسد — قلنا يا رسول الله فمن على اثره قال الذي يشنأ الدنيا ويحب الآخرة »

والاخبار والآثار في فضل الزهد كثيرة كقوله عليه الصلاة والسلام اذا رأيتم العبد أعطى صمتاً وزهداً في الدنيا فاقتربوا منه فانه يلقن الحكمة وقال تعالى « ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً » ولقد قيل ان المطلوب من الزهد في الدنيا ما يفهم من الآية الشريفة « لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » اذ الزاهد حقيقة لا يفرح بموجود من متاع الدنيا ولا يتأسف على مفقود منها بحسب المراد منه هاهنا ، وفسر الامام الثوري الزهد بقصر الامل في الدنيا فقال «الزهد في الدنيا قصر الامل ليس بأكل الغليظ ولبس العباءة»

وليس قصر الامل أو بغض الدنيا النفسي الذى فسروا به هـذا الزهد هو ابطال العمل أو الكف عن النعيم المباح والاستمار المطلوب للدنيـا وفي الاثر الشريف « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » بل

هو حالة تقوم بالنفس القدسية ترى صاحبها الدنيا على حقيقتها وحقارتها وقصر حظوظها ومتاعها القليل مهما كانت ومهما وجب وندب الشارع الى السعي فيها والسعي لها لبقاء الجنس وحفظ النوع حرزاً مكرماً فيرغب المرء من ثمّ فيما عند الله ويقبل بخاطره وآماله وعواطفه الخفية الى تحرى ثواب الله ومشيئة الله الى تلك السعادة الحقيقية وامياً في كل مطلوب اعماله الدنيوية ومساعيه العملية الى ما يجنى من الربح العظيم في الآخرة ولا ريب أن من يبلغ تلكم الدرجة العظيمة من الزهد اتصف بالاحسان وفاز بأجل المقامات والآداب النفسانية والراحة البدنية مصداقاً للحديث الشريف «الزهد في الدنيا يريح القلب والبدن» لان الدين مهما جاهد في الدنيا وحصل من متاعها ونعيمها الحلال المطلوب فهو وان عد ذلك كله من اكبر نعم الله عليه الواجب شكرها يراه ايضاً صغيراً حقيراً بالنظر الى ما يستقبله من نعيم الجنة الذى أعده الله لعباده المؤمنين وصريح الآية الشريفة تقول « فلا تعلم نفس ما أُخفِيَ لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون »

وآخر ما قصدت عده من تلك المقامات الأدبية النفسانية

ويجدر ان يختم به هذا القسم من أدب النفس مع الخالق تعالى ومالها من أحوال ومقامات يجب اتصافها بها بحقه سبحانه وتعالى « الفكر » والتدبر والتأمل والاستبصار في « عظمة الملك والملكوت » لان الاسلام لما كان « الدين العلمي » الذي يستند على العلم والعلم يقتضي انطلاق العقل بالتفكر والتدبر في كل الاحوال والمقامات وسائر الاعمال والمصنوعات الطبيعية والانسانية لذلك جاء في القرآن الشريف مطلوباً منه مندوباً اليه في غير ما موضع من الكتاب العزيز كما في الآية « ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولى الالباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار » ولذا جاء في الحديث الشريف « تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة »

ويطلب الفكر ايضا دينياً عندنا في أحوال النفوس ومعارفها وافعالها قال الفضيل « الفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك » وقال الحسن هذه الحكمة البليغة « ان أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر وبالفكر على الذكر حتى

استنطقوا قلوبهم فنطقت بالحكمة » وقال وهب « ما طالت فكرة امرئ قط الا علم وما علم قط الا عمل » وقال عمر بن عبد العزيز « الفكرة في نعم الله عز وجل من أفضل العبادة » وقال حاتم « من العبرة يزيد العلم ومن الذكر تزيد المحبة ومن التفكر يزيد الخوف » وقال ابن عباس « التفكر في الخير يدعو الى العمل به والندم على الشر يدعو الى تركه »

وقال الشافعي رضي الله عنه « استعينوا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالفكر » وقال أيضاً « صحة النظر في الامور نجاة من الغرور » والعزم في الرأي سلامة من التفريط والندم » والرّوية والفكر يكشفان عن الحزم » والفطنة ومشاورة الحكماء ثبات في النفس وقوة في البصيرة » تفكر قبل ان تعزم وتدبر قبل ان تهجم وشاور قبل ان تقدم » وقال الشاعر :

اذا المرء كانت له فكرة ففي كل شيء له عبرة

ولاغرو فانه باطالة الفكرة والتأمل يحصل للانسان العلم اليقيني والحكم القطعي أو الذي ترتاح اليه النفس فيبعد عن التقليد الاعمي في الاحوال والافعال والعلم وكلما اتسع نطاق علم الانسان ومعارفه المكتسبة ومعلوماته التي يحصلها ويستفيدها

من مجربات هذا العالم وحوادثه سما فكره وعلا في الاذواق الاجتماعية والاحوال والمقامات الدينية كسبه يجني من ثم دينياً ودنيوياً أشهى الثمار الفكرية والتأملات العقلية والسعادات والاذواق فازداد بهذا كله قرباً من الله وبعداً بالنفس عن مساوى حالاتها وسفاسفها المستقاة من شرور العالم فينير الله بصيرته ويجلي قلبه ويرفع شأنه ويسدد خطاه في كل أعماله ويملأ ما بين جوانحه نورا وحكمة وروحانية يستلذ بها ويطيب بما لا يمكن ان تماد لها عنده لذة أخرى أو يساويها سرور ثان ولقد قال الامام الجنيد ذلك الصوفي الكبير هذه الحكمة الغالية والموعظة الحسنة العالية قال « أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد والتنسم بنسيم المعرفة والشرب بكأس المحبة من بحر الوداد والنظر بحسن الظن لله عز وجل ويالها من مجالس ما أجلها ومن شراب ما ألذه طوبى لمن رزقه [1] »

---

(١) الاحياء للغزالي